بشر فارس

جبهة الغيب



أحدوثة شرقية في خمس مراحل

للمؤلف

في اللغة العربيــة :

« مفرق الطريق » (مسرحية في فصل واحد مع توطئة) القاهرة ١٩٣٨ .
الطبعة الثانية ، مزيدة ، ١٩٥٢ — مثلت بالفرنسية في باريس سنة ١٩٥٠ ، وبالألمانية في سالزبرج اثناء مهرجانها سنة ١٩٥١ ، وفي فينا سنة ١٩٥٣ ، وفي مونستر — وستفلن بالمانيا سنة ١٩٥٤ .

« سوء تفــاهم » (مجموعة قصص) القاهرة ١٩٤٢ .

« كلمة الشاعر » في « المقتطف » أبريل ١٩٤٥ .

« الظلال في الأدب » في « الكاتب المصري » فبراير ١٩٤٨ .

« سر الزخرفة الإسلامية » (في فلسفة الفن) . مع ترجمة باللغة الفرنسية .
من « منشورات المعهد الفرنسي » القاهرة ١٩٥٢ .

« ديوان شعر » الى الطبع .

« مباحث عربية » (في اللغة والاجتماع) القاهرة ١٩٣٩ .

« اصطلاحات عربية لفن التصوير » من «منشورات المجمع العلمي المصري»
القاهرة ١٩٤٨ .

في اللغة الفرنسية :

« قصص » في « كراسات الجنوب » مرسليا ١٩٤٧ ، وصحيفة « بارول فرانسيز » باريس ١٩٤٨ .

« مفرق الطريق » في « المجلة المسرحية » باريس ١٩٥٠ . الطبعة الثانية ، « مطبعة مصر » القاهرة ١٩٥٢ .

« جبهة الغيب » الى الطبع .

« العرض عند عرب الجاهلية » (بحث في علم الاجتماع) باريس ١٩٣٢ .

« المشكلات التي تعرض للكاتب العربي الحديث » في « مجلة الدراسات الإسلامية » باريس ١٩٣٦ .

« مباحث » في « تكملة دائرة المعارف الإسلامية » ليدن ١٩٣٦.

« مكارم الأخلاق » (عبارة اسلامية أخاذة) في « مجلة الأكاديمية الوطنية للعلوم » روما ١٩٣٧ .

« منمنمة دينية تمثل الرسول من أسلوب التصوير العربي البغدادي» مع موجز باللغة العربية . من « منشورات المجمع العلمي المصري » القاهرة ١٩٤٨ .

« مخطوط عربي مزوق في النبات » في مجموعة In Memoriam Ernst Herzfeld نيويورك ١٩٥٢ .

« كتاب الترياق » (مخطوط عربي مزوق من خاتمة القرن ١٢) مع موجز باللغة العربية . من « منشورات المعهد الفرنسي » القاهرة ١٩٥٣ — نال هذا الكتاب في باريس سنة ١٩٥٤ جائزة أكاديمية الفنون الجميلة وجائزة جمعية مصر — فرنسا .

« الفن القدسي في التصوير الإسلامي الأول » مع موجز باللغة العربية. من «منشورات المجمع العلمي المصري» القاهرة ١٩٥٥.

« كيف زوقت العرب كتب الفلسفة والفقه » . مع موجز باللغة العربية . من منشورات « المعهد الفرنسي » بدمشق في مجموعة Mélanges Louis Massignon ج ٢ بيروت ١٩٥٧ .

« طلاسم مصورة » في Festschrift Ernst Kuehnel برلين ١٩٥٩ .

« سوانح مسيحية وملامح اسلامية في مخطوط عربي مزوق في القرن السابع » مع موجز باللغة العربية . تحت الطبع في القاهرة . من « منشورات المجمع العلمي المصري » .

أنجزت دار مجلة شعر ببيروت
طبع هذا الكتاب
« جبهة الغيب »
وكان الفراغ منه لست عشرة خلون من شهر سبتمبر سنة ستين وتسعمائة وألف . وعدد النسخ من هذه الطبعة الأولى ١٠٠٠ نسخة كلها على ورق هولزفراي ممتاز ، مرقومة من ١ الى ١٠٠٠ . الرسوم للفنان القاهري صلاح طاهر



بشر فارس

جبهة الغيب

أحدوثة شرقية في خمس مراحل

دار مجلة شعر
بيروت



إشارة

كان المؤلف خطّ نهج هذه المسرحية وقيّد جوهرها ورسم أشخاصها في قصة ذات حوار عنوانها « رجل ! » خرجت في القاهرة سنة ١٩٤٢ في «المقتطف» وفي كتابه « سوء تفاهم » ثم في « موكب الحيـاة » (« قصص مختارة من الآداب العالمية » من هدايا « المقتطف ») . والقصة منشورة هنا تمهيداً للمسرحية وتبياناً لمصدرها .

وُضعت المسرحية باللغتين العربية والفرنسية. وسُجّل النص الفرنسي شهر ديسمبر سنـة ١٩٥٢ في Société des auteurs et compositeurs dramatiques (جمية المؤلفين والملحنين المسرحيين) ومركزها باريس . ثم نُقل النص الى الالمانية في خريف سنة ١٩٥٤ بايحـاء من ادارة مسرح Burgtheater في فينـا . وفي سنة ١٩٥٥ قرأ المؤلف فصولاً من النص العربي في دار اذاعة دمشق ثم في دار اذاعة بيروت وفي الجامعة الاميركية بها . وقد نُشرت ثلاث أناشيـد واردة في غضون المسرحية : « غمز قيثـار مغترب » في « سوء تفاهم » ، « أنشودة الفلاح » في « الاديب » البيروتية سنة ١٩٥٣ ، « أيها القيثار » فيها أيضاً سنة ١٩٥٧ .

واذا شاء القارىء ، حين يمتحن نفَس المؤلف ، أن يستزيد من الوقوف على وجهته في القول فله أن يرجع الى ما كان عرضه وأوضحه ، نحو «التوطئة» التي عملها لمسرحيته الاولى : « مفرق الطريق » سنة ١٩٣٨ ثم ١٩٥٢ ، و « كلمة الشاعر » في « المقتطف » أبريل سنـة ١٩٤٥ ، و « الظلال في الادب » في « الكاتب المصري » فبراير سنة ١٩٤٨ .

رجُل !

في زاوية من زوايا الأرض جبل طال طولَ تمني الفقير وسأم الغني . جبل اشتد اشتداد شهر الصوم على المتكلفين ، والناس يحذقون التكلف لأن الفطرة سلامة .

جبلٌ هبٌّ أملس ضامراً جرداً : رمحٌ ركزه ربٌّ أعياه خلق لا ينزجرون .

كان الجبل سيّد أهل الزاوية : يستقبل أعينهم كل صباح فيحدّ من مرماها ، ويعكس عليهم شعاع الشمس فيشترك في اللفح ، ويصدّ عنهم الزعازع فيهدئ ليلهم : مصدر طمأنينة وصاحب غلبة .

كان أهل الزاوية لا يرفعون الأبصار الى الجبل الاَّ وأكفُّهم مفروشة فوق حواجبهم . وإن تجرأ الطرف وانفسح ، فعلى سبيل اللمح : كان الجبل يمزق عزم العين . ولولا هذا الجبل الأملس الضامر الجرد ما كان أهل الزاوية على تلك الحال من الدعة والرقة ... لا بدّ للناس من شيء يهدهم بالسحق ، من شيء متماسك مع تطاول حتى تلين أنفسهم .

كان الجبل مصدر طمأنينة وصاحب غلبة .

وكان الشغلَ الأكّال للأذهان : على رأس الجبل بيت منقور ، نقره شيء مجنّح هوى من ناحية السماء ثم زرع فيه عشباً أبيض قصير الورق ، مَن أكل منه وهو ندٍ في منبته ظفر بالحياة الأبدية ... السماء تستهوي الخلق أبداً ، وتارة تغويهم ، السماء جزء من الكون ، والكون يهرج .

والطريق الى ذلك البيت المنقور وعر ، مُعضل . والتصعيد فيه مُخدعة من خدع الموت . ولم يقوَ على بلوغ البيت من أهل الزاوية سوى اثنين . وقد عاد أحدهما كسيحاً من الإعياء ... هل يقدِر رجل على حمل الأبدية ؟ وعاد الآخر مكفوفاً ... آه من الشمس تقتل من حيث تُحيي : وهجها يُنير ويُعمي : أضاءت البيت المنقور أيّ اضاءة حتى إنها أطفأت العين .

عاد الكسيح والمكفوف وبين أيديها الأبد . ولم يَدر أحد من أهل الزاوية أيسخران من الموت أم الموت يسخر بهما .

•

ـ « يا رجل لا تصعّد في الجبل . »

ـ « أنا مصعّد فيه يا قوم . »

ـ « أتبتغي الأبدية وأنت بشر ؟ أتخرج على سنّة الكون ؟ كل ما فيه مقدّر : الجفاف يترقب النبات ، الليل راصد للشمس ، الموت يُحصي على الانسان أنفاسه . »

ـ « الكون مبذول لنا ، لسنا بمدفوعين الى الكون يعبث

بنا ويتحكم في أمرنا . الكون مبذول لنا ، فليسخّر أ قيوده للعبيد، لِمَن يطوّح النظر الى فوق وكفّه مبسوطة فوق حاجبه. هذا الجبل يكسر طرفي ، وأنا أريد أن أحدّق اليه وأقول له : الآن لا أسارقك النظر ، ولا أخشى لمسك وخطفك ، لأن سرك انتقل اليّ . أنت تطويه في رأسك وأنا في عروقي أبثّه ، أنا أفضلك وأبهرك ، لأنك صاحب السر ، أما أنا فمختلسه . أنت قبضت على المستحيل وهوّلت به علينا ، أنا أجعله برجولتي ممكنا .»

– « ولكن الكسيح والمكفوف ، ألا تتعظ بهما ؟ »

– « انهما رغبا في الأبدية طمعاً فيها وحدها . أما أنا فأطلبها لتنقاد ، لأُحس باني ظافر . هما رغبا فيها للتنعم بالحياة الباقية ، وأنا أطلبها لأصرعها ... كالمرأة تستمتعون بها وتلهّون ، أما أنا فأطرحها تحت همتي لأشعر بأني أملك شيئاً نابضاً ، شيئاً أستطيع أن أنشر فيه من ارادتي وأسلّ منه إرادته عِوضاً . إني لا أحس برجولتي الا اذا وجدُتني السلطان القادر على حياة غيري . حياتي لا أملكها لأني عبد لها تسيّرني ولا أجرؤ على الانتقام منها ... لا يقتل نفسَه الا من افتقد حياته فانفلت من ضغطها ، ولست كذلك ، حياتي بين يديّ لكنها لا تسعانها .»

تمهّل الرجل ليتصفح القوم ثم واصل : « أنا مصعّد في الجبل لأغتصب عمري من براثن العدم . فأعود سيدَ نفسي : اذا ضايقتني أدبتها ، سيدَ جسمي : أُفنيه متى أشاء ، سيدَ روحي : أميّلها على هواي ... الروح التي حِرتم في شأنها سأقبض على

أطرافها وأجعل لها من عظامي اطاراً يخنقها . أنا مصعّد . »

قال الرجل مقاله ، فضحك الكسيح وبكى المكفوف من خلفه ، كأن أحدهما يتمّم أخاه . ثم حمل المكفوف الكسيح وأخذا يتحسسان – هذا بعينه وذاك بقدمه – نعيمَ الفناء : الأرضَ وما عليها .

عاد الرجل الى مقاله : « أنا مصعّد ، وسألقي اليكم كل يوم بحجر لأعلمكم بأني سالم ، حتى أرجع اليكم فتلتفّوا حولي وتسألوني أن أفتك بهذا الكسيح وبهذا المكفوف لأنهما طلبا ما فاتهما خطرُه . أنا مصعّد . »

هدأ الرجل . ومن بين الصفوف برزت فتاة وقالت : « لا تذهب الى البيت المنقور . »

أخذت الرجلَ بحّة وهو يقول : « يا حبيبتي ... »

تطلعت الفتاة اليه قلقة البصر حيرى السمع . فأكّد الرجل: « نعم ، حبيبتي . الآن فقط أناديك : يا حبيبتي . ومن قبل كتمت ما يشغل صدري ، لأني لو نشرت حبي بين يديك لتعطل احساسك الدفين به . »

ثبت القلق في البصر وامتدت الحيرة في السمع . فزاد الرجل: « الروضة التي عن يمينك تجلسين اليها تنقلين البصر ، فيتزود ، فينساب سحر مستتر تحت الجفنين فيغلبها ويطبقهما ، ثم تُقبل صاحبة من صواحبك فتصيح : ما أجمل الروضة ! فينزعج السحر ، ويفر من تحت الجفنين ، فينفرجان ، فترى عينك ما تراه عين صاحبتك : تلمس حواسك الأشياء ، فتصحو ، فتبطل الخلوة

بالوهم الخاطر .. الحب والجمال كالبريق الذي في الياقوت الأصفر الرقيق : ماء رعّاش في تعاريج الجوهرة ، فوق الوصف ودون اللمس ... الحب والجمال وماء الجواهر لا تفعل فعلهـــا الا اذا ر ّفت وراء حجاب شفاف ... يا حبيبتي . »

دنا الرجل من الفتاة التي برزت من بين الصفوف ، فـارفض القوم . فقالت الفتاة : « لا تذهب الى البيت المنقور . »

ضمها الرجل اليه : « اليوم أناديك : يا حبيبتي ، لأني منصرف عنك . لحظةً ينشرم اللحم من اللحم يحسن بالألفـــاظ أن تنفح دما . وهل يفور بالدم غير الألفاظ المقدسة ؟ »

فك الرجل الفتـــاة من الضمة : « وما أحراني الآن بأن أناديك : يا حبيبتي ... اني ببـاب المعبد . سأدخله في الوقت الذي أختاره ، سأدخل معبد الزمان المنزّه عن خطر الانفصال ، فأختطف من دعائمه حقيقةً حرفين متلاحمين : الحـاء والباء ، لأن الحب نفسٌ متصل . اليوم لي الحق أن ألفظ الحرفين لأني قريب الاتحاد بالقوة الراسخة ... آه ! يضحكني البشر حين يخرجون حروفاً وُضعت لغير حلقهم . البشر الى الزوال ، والحب حابس العابر في المقيم ، حابس الزمن الدائر في دقة قلب . »

قـالت الفتاة التي برزت من بين الصفوف : « لا تذهب الى البيت المنقور . »

فتدفق الرجل : « أتخشَين أن تشغلني الأبـدية عنك ؟ لا أهواها ولا أشتهيها ، انما أريد ان أذلها . أَنت تغارين منها لأنك تحسين ما تكون هبتها لي . ستَهب لي سرّها ، ويشق عليك أن

ينافس سرّك الذائعَ في صدري سرٌ داخل . ثم تحسين أن الأبدية شيء يماثلك ، شيء يمنح السعادة . »

ثم جعل الرجل يقطّر كلامه : « لا تغـــاري يا حبيبتي . سأجعل الأبدية سُلـّما اليك . فأجلس ازاءك ندًّا الى ندّ : أنت امرأة تبسط الدنيا لحبيبها فيسع الأشياء كلها ولا يسعه شيء ، وأنا رجل قد نزع قدمه من ورطة الأرض ... كفّني عن منمي . »

همهمت الفتاة : « يا حبيبي ، لا تذهب الى البيت المنقور . »

•

وذات يوم لم يسقط حجر . فندّد القوم بالرجل ثم سبّوه ... لِمَ يحاول الفوق عليهم ثم يكبو !

وفي الليل حلـُم المكفوف أنه رسّام والكسيح أنـه رقّاص .... الشماتة فنّانة !

ثم مرضت فتاة .

وذات صباح هبط الرجل على القوم سالمـــاً . فالتف القوم حوله :

ــ « أنت ؟ حيّ ؟ هل أكلت من العشب ؟ »

ــ « عنّي ! الطريق ! »

ــ « ولِمَ أمسكتَ عن القاء الحجر ؟ »

ــ « الى من ألقى بالحجر ؟ لا ترقبوا الشيء من عل ، نقّبوا في جوف الأرض ، يا بشر ! عنّي ! الطريق ! »

دخل الرجل بيت الفتـــاة التي برزت من بين الصفوف ثم مرضت .

والفتاة لم تكن في البيت : قتلها الحجر الذي لم يسقط .

خرج الرجل الى الجبل ، وصعّد فيه يقصد الى البيت المنقور يحاسبه .

ولما كان ذات صباح سقط الرجل من الجبل ميتـاً ... قتل الرب نفسه ، والذي قتله بَشَر .

شتوره (لبنان) أكتوبر ١٩٤١

همسة

ليس المسرح بهواً سُمِّرت نوافذه ثم نُقلت اليه نقلاً حركات الناس فهُزلت حتى التلف . هو قنطرة مسحورة تهفّ فوقها هبّات الكون فتنحرف من اقليم الى اقليم ، من سطح المظهر تنساب في غور المخبر ، تخلُص من مضيق الخاص الى رحب العام . للخلق ، على تباينهم في الطباع ، دخيلة واحدة ، وإن ترددت بين انقباض وانشراح وَفقاً للشوط المقطوع في مطالع الرهافة . فكيف يقوم جوهر المسرح اذا عُلّق سرّه بأشباح جيلٍ من الناس أو بأعراض رُقعةٍ من الأرض ، لا تتمّ معهما حقيقة الانسان ، هذا الذي يلفّ تفاريقَه مدارُ الأزمنة والأمكنة ؟

المسرح ــ كالشعر ، كالنحت والتصوير ، كالموسيقى والرقص ــ خصبه من شحنة البشرية كافة . هو لها . ذلك أصل بقاء المسرح اليوناني الأول والمسرح الشكسبيري ، وقدر المسرح الذي ابتدعه نفر من المتأخرين مثل بيراندلّو وتاجور . وسواء فزّ النضال بين آلهة وعبّاد أو بين الغرائز والروادع أو بين بيئة وأهلها تجري الخوالج على وعيٍ مرة وفي غفوٍ مرّات ، أو تلابس حنايا الضمير فلا تبرز الى مشهد الحس ، أو تُحجم فلا تدور اطلاقاً بإشارة ولا على لسان ولا في خاطر إذ هاجرت الى غيابة الوجدان فتاهت فأورثت الحرج الذي يفوت همّة الظنّ .

وهذه التوائه اذا ضممتَ اليها ما يجري غفواً وما يلابس الحنايا حصلتْ لك مادّة أدب المسرح الأصيل ، لا يبين أثرها للعين الفاحصة تنظر المعالم دون المغامض . مادّة صالحة لسرداب التجارب النفسانية . وهذا الأدب ــ بعد شكسبير وراسين ــ تفكك أسّه وتخلّف مغزاه

في أكثر الحال ، فصار على الغالب إما الى لعب وإما الى محاكاة الواقع المبذول .

كثيراً ما نُحسّ شوارد الشعور ولوامع الادراك ، ولكنّ تقريبها الى الأذهان من حظّ مَن حباه ربُّ الكلمة بتلوين المبهَم وتشكيل السانح . تلك رسالة الشاعر — والمسرحي الحق شاعر — فهو يهمس بما استعجم على عامّة الناس . انه الغوّاص على دقائق البشر لخيرٍ كانت أو لشرّ . هنا معقِد غايته . ولعلّ قوله لم يرفّ على سمع في الحياة الجارية لأنه تناثر من تحليق الوحي ، على أن السامع ينفعل له وينزعج به وقد حدّثه حدْسه أن القول يصوّر شيئاً خامر فؤاده أو هو مخامره يوما .

هيهات أن يكون المسرح مصنع ترديد : ألفاظ كلّها محدودة قاصرة ، مطروقة ناحلة ، يلوكها الناس ،

على قدر ما تمرّسوا به من التعبير . المسرح منبت توليد : كلماتٌ تحوم على نجوى الشاعر وهو يتقصّى مسارب الكون ويتقرّى مصاعبها رجاء أن يعرف . والعرفان يلوح في لحظة القول ، لا في صورة هيّنة دارجة . — بعيدٌ وادي الحقيقة : دورانٌ ، موران ؛ هل يقربها المتلطف الا اذا تموّر ودار ؟ من هنا مأتى الرموز والخطفات .

واذا كان أشخاص المسرح لا يُفصحون في مجرى العيش على نحو ما ينطقون وهم بين أيدي الممثلين يُلهمهم الشاعر ، فذلك أنهم في ذلك المجرى دمىً بشرية مقذوفة في لجب العواطف : شأنها شأن الغريق تلاطمه الأمواج فيزيغ صوابه ، وأما الناظر على الشاطىء — الشاعر — فيُحسّ عن الغريق بذكاء بصيرته ثم يعبّر : الإحساس حقّ لأنه للبشرية جمعاء ، والتعبير حقّ كذلك وان كان خاصًّا بصاحبه : اقتراحٌ ولّده التقاطٌ لمّاح الى ما وراء القريب ، هنالك حيث البديهة

الثاقبة رفعت دولة البيان النافذ .

الدنيـــا حقل النضال ، النضال اضطرام جوّه اضطراب . فالمسرح الذي لا يخفق فيه نضال الأبطال فعلاً وقولاً انما هو مسرح كاذب ، فاتر ، اذا أعطى لا يُغني .

إلى سرّ أمّي في حظيرة القُدس
ولها الى كنز الإيناس وتمجيداً لبطولة المحبة

ب . ف .

١٨ – ٣ – ١٩٦٠

الأشخاص

فدا	في نحو الأربعين
هادي	تلميذه
الإمام	
القوّال	رئيس الفلاحين
الكسيح	
الأعمى	
القيثاري	وافد من بلد بعيد
زينه	دون الثلاثين
هَنا	فتاة

فلاحون . — لفيف من رجال ونساء في طائفتين

المنسق

سهل خضير عند سفح جبل شاهق وعر . حقلُ سنابل يشغل آخرة المهاد la scène . المكان غير محدود وكذلك الزمان . الملابس شرقية خفيفة لا بهرج فيها

مقترحات للرقص والموسيقى

المرحلة		دقيقة
الأولى	القيثار : تأليفات منبسطة	٢
الثانية	رقصة تنجزها زينه في ثقل ثم في خفّة ، تسندها موسيقى بلا قيثار ، أنغامها هائجة ثم عُلوية	٥
	موسيقى بلا قيثار : مصدر خشوع	٢
	القيثار : تقاسيم	٣
الثالثة	القيثار : ائتلافات مضغوطة ومتقطعة	١
	القيثار : لحن ميزانه مُطلق	١/٢ ٠
	موسيقى بلا قيثار ، غائمة	٣
	رقصة ندب بلا موسيقى	٢
	القيثار : مساوقة رقيقة	١/٢ ١
الرابعة	رقصة هفّافة تنجزها زينه ، تسندها موسيقى غاية في اللطافة	٣
	موسيقى بلا قيثار يغلب عليها الروحاني	٣



ما أحرجَ
الطـــريق
إلى الحيـاة

إنجيل متى

قـال الله للنفس اخرجي
قالت لا أخرج إلاّ كارهة
قـال اخرجي وإن كرهتِ

حديث قدسي

المرحلة الأولى

الظلام الى الشدة . فدا وهادي ثم زينه يبدون كأنهم
خيالات . يسمع النظّارة خاتمة حوار .

فدا لهادي

هادي ! قم بنا .

هادي

أرحل والحياة لا تزال تعانقني ؟

فدا

قم ! كلٌ ذاهب . كلٌ يعود .

هادي

لكنّ الموت يرصدني في شِباك هذه المغامرة .

فدا

حسبُك أن تكون سلكتَ في الطريق ... هادي ! أنْ

تَهجرَ الخيمة بعد أن غلغلت الصحراءُ في فؤادك ، ذلـك عودٌ من مطرحٍ سحيق .

هادي

إن القشور التي كنتُ نفضتُها عني ، بين يديـك ، رجعتْ هذه الليلة، تتألّب عليّ ، وتشلـّني... أراني ، كما كنتُ ، أخشع لحركات الناس ، أرضى بها جاريةً على نسقٍ هو هو ، يوماً بعـد يوم : تزوِّر ما أشاهد ، تبيِّس ما أحسّ ، حتى تراكبت فجأةً سدًّا بـين البصر والبصيرة . [مهلة .] خبِّرني ، أستاذي : لماذا تألبت القشور من جديد ؟

فدا

أنتَ نفضتَها ، ولم تَفقد قطرة دم . [يخرج .]

زينه تأتي من الجهة المقابلة . لهادي

بالله لا تذهبْ معه ، عسى أن يَعدل ، عسى ... فأنت لك حظّ من قلبه . أنا ؟ يا حسرتي .

هادي

مهلاً ، زينه ! ألمحُ فيه شرارة حبٍّ لك .

زينه في تأسف

حبُّه لي ... هل استطعت أن أثيرهُ ؟ هل تَهزُّ النسمة معبداً

منْ رخام ؟ تنوح ، تموت عند عتبته . [تخرج . هادي يتبعها . صمت]

الصبح يتنفس . القيثاري يجتاز المهاد في بطء وهو يرسل على الاوتار ائتلافات فرحة تتسرع شيئاً فشيئاً . صمت . في حين يغمر النور الجبل يتدفق الفلاحون الى قلب المهاد . القوّال يلحق بهم نشيطا .

القوّال مشيراً الى الجبل

هـا هي ذي العاليـة ، سِتُّنا [الجمع يحدّون أبصارهم الى الجبل :] ساعةُ استحمامها: تَغطُّ أنفها وصدرها وساقها في غُلَـواء الشمس.

الفلاح الأول

ما أظرفَها ! تتمطّى بعد كل غطّة . [للفلاح الثاني] انظر بالله ! انظر ! لها حَدَبة ترتعش ، متعاظمة ، تدري أنها في ملكٍ عزيز .

الفلاح الثاني

يا سلام ! كيف تتموّج تحت اللهب . آه ! مستودَع لذة .

الفلاح الثالث

غَوْرُهُ لا يُجسّ .

الفلاح الأول

لا يُجس أبداً ... واأسفا ! هل يجرؤ أحد أن ينغز الحدبة ، بعد التجربة التي عاناها الكسيح ، والأعمى ؟

الفلاح الثاني

يُقال إنها مأوى لجنسٍ من الطير : رؤوس نسور وأجسام

وطاويط .

الفلاح الأول

متى همّ الفجر تسابقَ الطير في لعق أطرافها .

الفلاح الثالث

بِستّ ، أيُّ بِست !

الفلاح الثاني

أخْ . لو يُفضّ هذا المستودَع ...

الفلاح الثالث للقوال

فماذا ينبع يا ريّس ؟

القوال

النعيم ... جيلًا بعـــد جيـل تناقل أجدادنا هـذه الهمسة : [في خفوت] هنالك ، في جوف الحدبة ، مغارة غامضة ، ترفرف فيهـا نفحة البقاء . منذ القدم ، حين استسلم الخلق لجهامة الموت ، هوى من أفواه السماء طيف مجنّح ، نقَر المغارة بظُفرٍ من ذهب ثم غرس في صُلبها عشباً أبيض ، قصيراً ، معسول الورق ، مَن أكل منه وهو ندٍ في منبته تملّى الحياة الى الأبد... السماء تستهوي الخلق أبداً وتارةً تغويهم ... ألا مَن يسلب النفحة ؟

الفلاح الثاني

وهي للنسور غذاء ! أفّ ، أفّ ...

القوال

منذ القدم نفتّها ملائكة دهاة . هل سلبها أحد ؟ [يضحك] أن نرضى بحرمانٍ دائم، ذلك حظّنا . [في وجوم] تمنع الحياة ، ومن المنّاع ؟ ستّنا .

الفلاحون في تجرؤ مكبوت

وتخدعنـــا .

القوال يستقبل الجبل . في انفجار

هذا يومكم ، لا يومَ سواه طول السنة . المحظور مستباح فيه : لكم أن تحدقوا الى العلياء . هيّا ! تحدّوها بقوة جديدة مستلّة من تعظيمكم لها . برّشقات العيون ، اليوم ، عوّضوا شهوراً ضاعت تقديساً لها، ضاعت وعزماتكم مطرقة . ما أثقلَ النعاسَ الذي ركب أجفانكم ! [يشير الى الأرض] السهل كله فزّ ، هذا الصباح ، وقد نفّش خدودَه شوكُ الغضب ... أين صراخكم ؟ [الفلاحون يصرخون ويركضون هنا وهنا .] هذي انتفاضة المكبَّل ! يومٌ ولا يوم سواه .. [بينا الفلاحون يدورون حول حقل السنابل كأنهم عصبة من أهل الغابات في موسم] لنَضربنّ الارض بجراحاتنا ، لعلنا ندفن ، تحت هذي السنابل ، ما تبقّى من همّة دمنا ، نحن العبيد . هلمّوا الى الفرح ، نحكّ بزَبَده ختمَ العذاب في أعناقنا ! هذا عيدكم، يا عرائس، زفّها استهزاءُ الموت.[يكفّ الفلاحون عن الدوران .]

الفلاح الأول

واه ! هذا السهل ...

الفلاح الثاني

أمِنهُ غذائي أم أنا الذي يغذّيه ؟

الفلاحون يتناظرون في ارتباك

القوال ينشد

وغديرٍ رمى بدمي
عند حقلٍ من الفتنِ
نزهةُ الأرض من سقمي
أنا أسطورة الزمنِ

عند حقلٍ من الفتنِ
رفّه خفقةُ النِعمِ
عزّ نشوانَ من مِحني
هو يحيا ولي عدمي

نزهة الأرض من سقمي
من غرامي بمُمتهِني
أملي مضغـــة النهَم
لفّني الخصبُ في كفني

أنا أسطورة الزمـنِ
تاجُ وهمٍ من الهمم

ضيفٌ روضٍ بلا فنن
غَرِدٌ في دُجى الصمَم

أنا أسطورة الزمن

الفلاحون حول حقل السنابل يتمايلون وهم يرددون في نوبة واحدة هذا الشطر : «أنا أسطورة الزمن» . الإمام يدخل. تتبعه الطائفة الأولى من اللفيف . الفلاحون يلزمون السكوت .

الرجل الأول في وسط اللفيف

آن لهذا اليوم أن يحلّ . لِنَلتهمْ ساعاتهِ . يَلاّ !

الإمام

اضحكوا ، غنّوا ، ولكنْ حذارِ حذارِ : إن تحررتم لحظةً فاتّقوا ما وجبت حُرمتهُ ... إياكم وحنقَ القويّ .

القوال

هاه ، هاه ! هذا يومنا . حق أو غير حق ? [الفلاحون يوافقون بإطراق الرؤوس وهم يترنحون في صمت .] هل يَحسن التردد والموتُ في لفتة الطريق ? سوف نقطع رقبة الحرمة .

الرجل الثاني

الاستمتاع بالمحرّم ... ياحلاوة ! مثلَ زوجة الجار ، تتستّر ، تتمنّع ، وعلى غفلةٍ ترمي الملاية .

الإمام

هي ! هي ! حدّقوا الى العلياء كيفما شئتم . أمّا أن تشنّعوا عليها فلا . [في شبه تكتم] هل نسيتم أنها حامل الى الأبـــد ؟ في حضنها سرُّها .

المرأة الأولى في وسط اللفيف

حامل ؟ لا تقُل هذا يا شيخ ، فال الله لا فالك . [تلتفت الى النساء وهي تتحسس بطنها .]

أصوات رجال في قلق

سرُّهـا ...

الفلاحون يحدقون الى العلياء .

القوال في شبه غيظ

سرُّهـا .

ذهول شامل. الطائفة الثانية من اللفيف تدخل ورجالها يحملون زينه.

الطائفة الثانية في دخولها

ارقصي يا زينه .

الطائفة الاولى مستقبلةً زينه

آ . ارقصي .

زينه تحجم . تغريها الطائفتان بحركات ولـبّات من طرائق الرقص.

القوال

كيف ؟ تحجمين عن الرقص ؟ في هذا العيد الفريد ؟ الآن أنت ، أنت البرق ، يتنزّى فيمزع غيم اليأس، قبل أن يدبّ على جباهنا ضبابُ سنةٍ كاملة . إيه ، رشيقةً صاولي الرياح ، فتترنّح معك صباباتٌ لنا زائلة ... ها هوذا الخلاء ، ديوانُ الخطرات الشوارد . سلّطي أنامل هفهافة تترسّل فيه ، عسى أن تنقل من مُلح التّمَح رهافات المسرّة ... وهذا الصعيد، شرّابُ الدماء، دعي جلَبةَ البدن تقرعه . وعلى وجه الحقل تضوّري فاقذي في زفراتنـــا .

اللفيف

ارقصي زينه . ارقصي .

زينه

لا أقدر على الرقص .

المرأة الأولى

يا دلال ، يا دلال ...

المرأة الثانية للأولى

ربما أجهدتْ خصرَها في الليل .

المرأة الثالثة

قرصة من هنا ، قرصة من هنا ، وهي ترقص .

ضحك . هادي يدخل ويمضي نحو زينه .

زينه — تنظر الى هادي كأنها على اتفاق

أرقص والقلب مثقَل ؟

القوال

مثقل ، اليوم ؟

زينه

إنه ذاهب .

أصوات — في اللفيف

من ؟

زينه

حبيبي .

المرأة الثالثة

حبيبها ... أه ! يا لطافة الكلِمة .

المرأة الأولى

كنتُ أظن صنف الأحباب نَفَد . وقتنا ذا همّ الرجال نطّ وضغط .

النساء يسترسلن في الضحك . زينه لا تبالي .

الإمام

الى أين ذاهب ؟

زينه

تجلي ببصرها حتى ذروة العالية

الإمام حنقاً

إيه ?

زينه

أجل . كان الليل يلملم نجومه حين رأيته يبري طرف عكازه . [ترنو الى هادي] أمَا رأيتَه ايضاً ?

هادي

يوافق باشارة

القوال في جد فائق

رجل يصعد .

الفلاحون في قلق

رجل يصعد .

الإمام

كلا !

أصوات لزينه

ارقصي .

الإمام لزينه

هيّا ارقصي . لن يصعد .

زينه

تنظر الى الامام مرتابة في قوله

الإمام

وَعَدتُ . [للرجل الاول] في وهمها أني أمنع حبيبهـــا من الصعود مرضاةً لها .

ضحك مكبوت من جانب الرجال . زينه تشرع في «رقصة السنابل» على ثقل في الحركات . موسيقى ذات أنغام هائجة .

المرأة الثانية وزينه ترقص

عجيب ! هذه المرّة أين خفّتها ؟

المرحلة الثانية

بينما زينه ترقص في شبه عناء إذ يبدو فدا من بعيد . يقف لحظة ً ثم يدنو غير حافل بما يدور حوله . الجمع يتفرسون فيه وقد ملكتهم بوادر رهبة . زينه تؤخذ ثم يشرق وجهها فتخط حركات في خفّة باهرة، على حين تصبح الموسيقى علوية منزّهة عن كل سبب جسماني. زينه تقارب فدا فتنحني . فدا يرفعهــا برفق . هادي يلحق بها . القوال يتجه اليهم . اللفيف يحيطون بهم .. الموسيقى تنقطع . زينه تقف في الصف الأول لكي تحضّ الإمام بلحاظها ولكن في تحفظ.

الإمام لفدا

يا رجل ! لا تصعد .

فدا

أنا صاعد .

الإمام

يا رجل ! تلك خطيئة .

فدا

يرشق الإمام ببصره

الإمام

الليـل راصدٌ لأبّهة الشمس ، القحط يتوعـد مرح الأرض ، الموت يُحصي على الإنسان ضحكاتـه : هكذا الكون ترتّبه أسوارُ القدر .

فدا

تعذّبهُ ... أسوار : تخومٌ مرتجلة ، مفازعُ ساجية ، مُرعان ما تنهار اذا رُجمت خلسةً بنظرة . لا نظرةٌ من حدَقة جُنّت بغبار السنابل ، ولكن من حدقة حرّة ، هي للروح طاقة .

الرجل الثاني

عجرفة !

فدا

إنما تواضعكم استرخاء .

الإمام

كيف لا نُذعن للقضاء ؟ هل من حيلةٍ معهُ ؟

فدا على شفتيه بسمة

أه ... ذاك الحبـل المحبوك ! انسلّ من لحى مشعوذين [يتفرس في الإمام] سدّت ألاعيبُهم معارجَ الصدق . [الى اللفيف] وكنتُم الى الحبل ، تشدّونه على رقابكم بأظفارٍ ربّاها صبرُ أقزام .

الإمام مستهزئاً

أمّا أنت فتستهين بقهر الآلهة ... [يصيح] تجرؤ على تجريحهم .

فدا

بل أنطلق بهم الى ما يجاوز إرادتكم ، وهي مُسِفّة . ترَونهم أصحاب جبروت يكبحون كل إقدام . والحق أنهم لا يُسبغون النعم إلا على من يهجر اليهم فيطاولهم .

الإمام

ويلك يا سبّاب ، يا مجدِّف !

اللفيف يضطربون . الفلاحون يقتربون من فدا .

فدا

مَن واجهَ مطلعَ الغيب يستقبلْ فضاءً ماجَ باللمحات . سأواجهُ ، عنكم ... لعلّ بحر مطامحنا يجيش ، بعد أن وَدَعت ريحه فيئستْ قلاعُ الأحلام ان تصطفق [مهلة] القدر : الإعصارُ نَفَسُهُ ، يزجر فيجرف البشر الى كوثر الرجاء . أنتم ، ويلي عليكم منبطحين هنا ، يهدهد أردافكم نسيمٌ يحبو . [في انفجار] أين الإعصار ؟

الإمام

هذا السهل يكفينا .

فدا

يا له من شاهد على بلاهة السهولة . [في سرعة] وبهِ مع هذا

كبرياء لم تلقَ بعدُ عقابها .

الفلاحون في تحفظ

أَهْ [يتضاحكون .]

القوال

يحدق الى فدا

الإمام

اسخرْ من السهل ما شئت . هاه ! إعلمْ أن جهاته الأربع مقسّمة على أحسن نظام ، محدّدة . لكي نحيط بها لا نحتاج أن نهيم مع فلتات المذيان ، هذيانك : يهرول ، يجعجع ولا يجدي . أمّا نحن فنمشي ، ولا نتسكع ، الى غايةٍ مبيتها أسفل الجبل .

أصوات في اللفيف

عالْ . عال .

فدا

خطأ ! ما دامت السماء ترقبنـا فليس الوجود سوى اندفاق ، ينبوعه وجدان ، في تموج وتوثب ... مـا دامت السماء ترقبنا .

الإمام

تكفر بالله وتستوحي السماء ، يا أخرق ؟

ضحك من جانب اللفيف . القوال يتقدم كأنه يتحدى .

فدا

تذكر الله ، أنت ، أنت ، سجانُ شريعةٍ تَقلص وجهُها ؟

الامام

يا ملحد ! [اللفيف يصرخون] الى من تجري ركعاتنا ورفعات أيدينا وزمزمات الشفاه ؟

فدا

الى العالية حيث الله غير موجود .

الامام عينه الى الذروة

ألا تتوجها آية الألوهة ؟ [مقطعاً :] الأبد .

اللفيف

يوافقون

فدا

ما أسرعكم في فكّ الألغاز ! هل يستوي الموجود والموهوم ؟

اللفيف يتساءلون ، الفلاحون في شده . القوال يبتسم ابتسامة رضى . هادي له بصر منسرح في الفضاء . زينه تتراجع .

الامام

أصبحنا لا نفهم كلامك .

فدا

هذه العالية شغلُ أكل ألبابكم .

اللفيف والفلاحون يتفحصون الجبل . القوال يتنحى قليلاً . زينه وهادي يتفرسان في فدا .

القوال يشير الى العالية

مدارجها لا تنتهي ، هل تخطّتها أماني الفقير ؟ شواهقها تخدش السحاب ، كالشهوات عضّت بالغنيّ .

هادي

وقرنها رمح ركزه ربٌّ جبار . أي ثأرٍ يطلب يا تُرى ؟

فدا

لا . لا ! على الرمح ... ها هي ذي ... ها دموعٌ تصبّبت [مهلة في همس] يا لَتحزن هـذا الرب ، شقّ عليه عجز الخلق عن إدراكه . أمَا من أحد يرحل فيمسحَ الرمح بنقـاوة قبلة ، فينجلي العار ؟

زينه مفجوعة

يرحل فيستقبله الموت .

فدا نظره الى الفضاء

لا يموت من شطَّ به الصعود .

الإمام

تفخيمُ قدْرِ البشر تهوينٌ لقدرة الله .

فدا

في وثبة

لا ، بل تزكية لها . [مهلة .] هذه العالية جسمُها فتنكم .

الإمام

شعثاء ، جرداء ، هي السلطانة . أجل — ما عدا هذا اليوم — لا تلفُّتَ اليها إلا والأكفّ مفروشة فوق الحواجب ، نلمحها خفية ... على أنها ترعانا أحسن رعاية : في الليل تصدّ الزعازع ، فتركب أحلامُنا أراجيح النزق ؛ في النهار ، تحدّ سعينا هجمةُ سفحها .

اللفيف

يوافقون

فدا

كذلك أنتم . لا بدّ لكم أن تجثموا في ظل شيءٍ هائلٍ متماسك ، يتطاول فيهددكم بالسحق . وإلا لفّتِ القسوة قلوبكم ، فهاج الشرُّ بكم .

القوال يدنو الى فدا يريد أن يتجرع ألفاظه . هادي يتجلى جبينه. زينه تجمع كفّيها على وجهها . الإمام محنق وقد أصاب كلامُ فـدا مقتلًا منه . اللفيف يغمغمون . الفلاحون يحاولون أن يتتبعوا حديث فدا .

فدا

الجبن قيّدكم بحضيضها ، ولا تزالون بعيداً عنها . أمّـــا أنا فسرّها حائم حولي .

القوال

سرّهـــا .

فدا

ما يُعجزنا شأنه خليقٌ أن يوسّدنا الأرق ، أمّا الذعر فلا .

اللفيف

يضطربون

فدا

هذا الكون — قِممُه ولُججه — مُصحف ، حروفهُ صُبّت في سبائكَ من غيوم ، تصونـــه درع من ياقوت ولؤلؤ ... ذلك سِحر الخلق ... وأبصاركم بزخرف الدرع تتلهّى عـــن خطر المكنون .

الإمام

إنّ سرّها مِلكٌ لها .

فدا

ملك للحياة .

الإمام

الحياة ليست لنا .

فدا يتحدى اللفيف ثم يبتعد . هادي يتبعه . القوال يمشي اليها ثم يقف . زينه تريد أن تبكي . الأعمى يدخل حاملاً الكسيح .

أصوات لفدا

يا رجل ! لا تصعد .

فدا

إني صاعد .

زينه لها اشارة مرتجفة . الكسيح والاعمى في شغلِ بال .

الإمام يلحق بفدا

تريد أن تغزوَ ربوة الخلد . أيّ شيءٍ أعددت ، قل لي : [في تحقير] أهذه الفورة ، تشحذها رشّة دمٍ في صدر بشر ؟ هَهْ !

فدا

ذخيرة الجنّة نَضحاتٌ من وَلَه الشهداء .

الإمام

هل تغلِب سلطان الشرائع ؟

اللفيف في استكانة

الشرائع ...

الفلاحون

يطرقون

الإمام

صخور رسخت ... أنت تحتقرها ، وترفع رعونتك هباءً ، علينا أن نستعصم به ، حتى تستبدّ بنا ، بالكون .

فدا

أستبد بكم ? يا لي من افترائك ! الاستبداد بالعشيرة من فجور المستهتَر بالسيادة وسفهِ الفاشل المتعالي ؛ اذبجوهما حيثما كانا . [مهلة .] مستبدٌ بالكون? هذا فرضٌ على من يسعى الى الخروج من ذلّ نفسه ... الكون مبذول لنا ، ليست أنفاسنا رعيّةً له هيّنة . أمّا رِواقه المشحون بتزاويق العبث فلا يطمئن تحته إلا تثاقل في الجسد .

المرأة الأولى — للثانية

هى . أتحسّين أنت أن جسمك ثقيل ?

المرأة الثانية

لا . [تتحسس صدرها وخصرها .]

المرأة الثالثة — للثانية

لحظة . أساعدك . [تساعدها على التحسس .]

المرأة الأولى للرجل الأول

وأنت ، أين المساعدة ؟

الرجل الأول يبسط يديه

حسّسْ ، حسس ، حسس ... كم سنة ! ذابت يدي يا اختي .

المرأة الأولى

آه يا خاين ! [تُوليه ظهرها]

الرجل الأول يتأمل ظهرها

ولو ! [يرفع رأسه منكراً]

اللفيف

يضحكون

فدا غير حافل بالضحك

لنجعلنّ الياقوت واللؤلؤ نُهبةً سهلة ... لن تنفد لأن ضمائركم قلما يتحرك نهمُها. [مهلة .] إن الأغلال التي أحكمتم تذهيبها تليق بمن رفع بصراً سرعان ما يطيش فينكسر ، ومعه ينكسر العطش الخفيّ .

الإمام ساخط . بعض اللفيف يجمجمون . الفلاحون في ارتباك لا يخلو من استحياء . القوال له ابتسامة مكتومة . هادي وزينه طوعُ شفتَي فدا . الكسيح والاعمى يقتربان .

فدا

هذه العالية ، هذه التهمت نُزهةَ لحظي ، وكم يحلو لي ان أدنو اليها ، ذات صباح ، فأهمس في كهوفها : الآن لا أخشى طلاسم سحرك . إن سرّك زار الأرض ... لما انتزعتُه من ضلعك وعُدت به أُرسله في دورة دَفَقاتي فجاشت بعد إعياء . [مهلة .] الآن بعد أن تناظرنا وتصاولنا ، أنا الفائق الفائز : إذا كنتِ يوماً صاحبة السرّ ، إنْ كنتِ حتى اليوم صاحبته ، فأنا الذي ينعم به . [مهلة .] هنالك في العلياء عرفتِ كيف تلقّفين الممتنع ، فظللتِ تلوّحين به ، من وراء ضباب ، حتى شلّ عبيدك هاهنا ، مطروحين تحت جاهٍ لا يرحم ... أنا ، في قدرتي اليوم أن أجرّد الممتنع من صَلفه فأفضحه في ساحة الواقع .

هادي والقوال والفلاحون ينظرون فدا معجبين . الكسيح والاعمى يطاوفان به . زينه مزعزعة . اللفيف مضطربون .

الإمام

يعاود هجومه مشيراً الى الكسيح والاعمى

ولكنّ هذا الكسيح وهذا الاعمى ، أتزدري قصّتهما العبرةَ يا رجل .

هادي

هما من معشر غير معشره .

الإمام

لفدا

هما ، قبلك ، جذبهما الصعب فذهبا في طلبه ، حتى قربا من العشب الأبيض وربما اقتطفاه . [بين الكسيح والأعمى حديث بالاشارة .]

أتحسس هذا مما يدور بينهما من إشارات غريبة ، غائمة . تعالَ ، تأملْ فيهما : [يومىء الى الكسيح] هذا نصيبه قدمان عصفت بهما رِعدة الجزع ... من الذي لا ينهدّ وقد حرر الوقت الذي يحتويه من قيد الفلك المقدور ؟ حتى ان كان الوقت أقصر من ومضة وهم . [مهلة . يومىء الى الاعمى] أمّا هذا فأصبح نظره لا يدور الا في انحلاله الباطن .

هادي معقباً

آه من الشمس ! تقتـــل من حيث تريد أن تحيي . ألهبت المغارة حتى إنها أطفأت العين .

فدا متمماً

رضيتْ العين بالصهْد ، بذكرَى مبتورة . فاتتها الحقيقة التامة ، فتفرّق ضوءها لطول ما تردد بين ما كان وما يكون .

الإمام لفدا

ألا ترى الى كل منهما ، نقّب في جهةٍ تفوت مرمى الظن ، وخاب . لا يعلم أحد : ألموت يستهزىء بهما أم يستهزئان به ؟ [الكسيح يضحك ، الاعمى يبكي] كلاهما يتمم صاحبه منذ رجعا : هذا يضحك ، هذا يبكي ، وكلاهما أليف الصمت . فاذا افترقا عجز كلٌ على حِدَته أن يستمرىء النقيضين في مأدبة الدنيا .

القوال

خبطتها الهواجس ، فنطوّحـا جنبـــاً الى جنب في سراب

الغبطة . [يلتفت الى فدا] هل أفلحا ؟ [للفلاحين] ونحن ، نحن نتهافت بين أزهار الفناء ، هل أفلحنا ؟

فدا يقبل على الكسيح والاعمى

همـا ر َكضا الى القدسيّ . أنا ، على مهل ، أفرش في الطريق اليه نفثاتِ الرُقيـة . ان الكاس التي زخرت بجمر الايمان نبتْ عنها ، أبت نهشة الشهوة لما أقبل كلاهما يكبس الشفتين على ثغرها رجاءَ أن يضرم الضلوع ، تحت ستر الليل ، بدفقةٍ واحدة ... جفّ العشب الأبيض في تلك اللحظة . [مهلة.] أما أنا فسوف أهزهز الكاس على خطراتِ ولهي ، ثم أترشف نسيمَ أُنسها وقد سطـع فيه شذا الومض ، فندى العشب بالرضا . [صمت . يمشي الى الفيف] كذلك شأن المرأة . مـــا رغبتكم اليها ؟ [زينه تخف اليه] أن تُحسن الترفيه عنكم ... أنا ، في فورة حنان ، ألويهـا تحت همتي أستودعهـا غليل الشوق ، فيصبح طوع يدي يوم أطلبه للسبب الخطير . ألويها فأسلّ منها رعشة الوجـد ، وأُرسل مكانَها حُرّ عزمي يستسلم لها بريئاً .

زينه

تتأمل فدا مأخوذة

المرأة الثانية لفدا

يا مجرم !

فدا

اي والله . لا أجد مروءتي الا حين أجد همتي قـادرةً على

حياة غيري . [الفيف يزمجرون] تفهموا ما اقول : انما تنشط حياتي عندما أقدُر حياة غيري حق قدرها. من أي وجهٍ أقدرها اذا هي امتنعت عليّ ؟ [الأعمى يقبل ويدور حول فدا حاملًا الكسيح . زينة بين اعجاب وفزع .] ... لا بدّ لي من حياة غيري [مضطرباً] لأن حياتي لا تخضع لي : عمياء هي تخط رحلتي في مدار الأرض. فتدفعني واثقة بأني أُراضيهـا . نعم ، أُراضيها ؛ كيف أجرؤ عليها فأنتقم : [في بطء] من لطخ يديه بدمه داس حماه ، خان سلاحه ؛ بكفٍ باغية يضرب القُرحة التي تمزق جنبه ، تقززاً من نفسه ، كراهـةً للبشرية ... لا يقتل نفسه الا من تفقّد حياته فانفلت من ضغطها ، ولستُ كذلك ، حياتي بين يـديّ ، ولكنها لا تسعانها .

الرجل الأول

ما احلى الحياة ! سيل دافي .

المرأة الثانية بالتذاذ

دافي .

الرجل الثاني للمرأة الثانية

تعترفين الآن [يتيه غروراً وهو يُمرّ أنامله على ذراعها .]

فدا كأنه لم يسمعهم

الحياة فيّاضة . والهفي ! كيف أحصرها كلّها في أحشائي . [مهلة .] هل أُسيِّر شطيها في لوح الأحكام والسُنن ؟ هذا هو

الجبن ! هل أُلقي بها الى حرج النفس او الى رزانة العقل يتصرفان بعنفوانها ؟ يا للخيانة ! الحرج يهرب من العقبة ، الرزانة تأباها ... لتتحررْ شهامة الرجل . [اختلاج شامل . هادي والقوال في تفكر . زينه تتنحى حصِرة الصدر .] اني صاعد لأستخلص عمري من براثن العدم ، فتنجو ساعات ليلي ونهاري . قُبحت هــذه الساعات ! لحظاتٌ يتنازعها تميُّع الأفراح وتفه الأحزان . سوف أرجــع من القمّة وأنا أتحكم في شحنة الحيــاة ، أصرفها الى غاية ، ومن قبل راحت ضياعاً : النفَس؟ أحدّ مداه ، الجسد.. أقمع طغيانه : أما ضنائن الصدر فهذه أنشلها هفافة من مخدعها ؛ أمّــا الروح — تلك التي حرتم فيها — فلن تتلاوى أبداً ، تكون قد ملِصت من ضنْك الشك ... اني صاعد .

زينه ترتعش . الإمام ينظر اليها مغلوباً على أمره .

زينه

والمهالك ؟ كيف تتخطاها ؟

القوال معقباً

وقد ابتكرها الموت ، عدوُّنا ، نصبها فخاً فخا .

فدا

الهاوية ، الصدع ، المطلع المُطمع ، المسقط الخادع ، كل هذه يسوّيها نظرٌ تصوبه النية الخالصة ... مساءً بعــد مساء ، سألقي اليكم ، عند شجر البرتقال ، بحجر أبيض ينبئكم بسلامتي . ويومَ انحدُر اليكم — ناسكاً طـــاف بزوايا الغيب — سوف

تطيحون عند قدمي ، وكأني الآن تطن في مسمعي صرخاتكم : تلتفون عليّ وتسألونني أن أفتك بهذا الكسيح وبهذا الاعمى لأنهما فتشا وقلبهما خلوٌ من اليقظة .

الكسيح والأعمى لهما حركات مختلجة بين ضحك وبكا خفيفين . يخرجان .

فدا

اني صاعد .

الامام يمضي الى زاوية مهزوما . الرجال يلحقون بـــه . هادي ينتبذ ناحية طلباً للتأمل . الفلاحون يخرجون . القوال يتبعهم .

زينه تسرع الى فدا . في صوت مجروح

لا !

فدا

يتصفح وجه زينه منعطفاً اليها ثم يهم بالانصراف .

زينه تستوقف فدا بحركة مرتعدة . حديثها ينم على اضطراب . تمد يديها

ها بين يديك الهبة ، كاملة صادقة . [للنساء وقد أخذن يلتففن عليها اشفاقاً .] هل ينفع المكر بعد أن محا قحط القلب فنون الجذب؟ محا حتى أهون الاكاذيب . [لفدا] مـــا يبدي حيلة . عبثاً تتـّقد الخلجات [في خفوت] تتحرى مطالع بُرجك .

فدا ينفي بأصابعه

يا ضيعة الهبة اذا تخلت نفسٌ عن جوهرهـــا في سبيل نفس

أخرى . [مهلة .] مـــا المطالبة بالتخلي سوى أستجداء ، من ورائه ظلم وأثرة : ظلم رب ، ظلم عاشق ، أثرة الضعيف .

زينه

لا أملك غير الهبة دليلا .

النساء يتضامن حول زينه .

فدا

لا يحتـــاج الى دليل إلا من حمل رأياً يثقله التصلب . أنا أحمل قلبي ، فما شأني والدليل .

الإمام من بعيد يهز كتفيه تهكما .

زينه

ما أستطيـع الا أن أهب .

فدا

صدقتِ .

المرأة الثانية لزينه

غلبتِه يا زينه .

زينه مسرورة ، لفدا

اذن ترى رأيي .

فدا

هي نفسك لنفسك ، هي لك أولاً . [النساء يتناظرن مبهوتات] لا تعظم الهبة ولا تنجع إلا اذا وافقت معدن الذي يتقبلها... هذا ضارب القيثار يفد علينا وقد تنسّم الأحاديث من أفقٍ الى أفق فيقول : هنالك إله لم يرضَ الا بلحم ابنه ودمه قربانا . [مهلة .] الفورة التي في جنبك عجلي كسرها ، ثم قدمي فتاتها ضحيةً الى الوثبة التي تشغلك ... الشمس تحترق لِتنثر الشعاع .

زينه مخلصة

ما عليّ اذا جمعتُ بين الفورة والوثبة ؟

فدا

الا تميزين حدّة البصر من صفوه ؟

الإمام يقهقه

هــــل سمعتم ؟ [ساخراً] يا ناس ، قوموا ميزوا حدّة البصر من صفوه .

الرجل الثاني

تخريف ! [للمرأة الثانية] تعالي [تقبل اليه تمد وجهها ، يقبّل ما بين عينيها.] لا أجد ما أميّز .

أصوات رجال

إنزل !

الرجل الثاني [يضرب بخفة على ساقي المرأة]

والساق واحدة .

أصوات رجال

والبصر واحد .

زينه تستشير بالنظر صواحبها وهن مفحمات. تفكر هنيهة . كالمقتنعة

سأجتهد في كسر الفورة .

فدا

تجتهدين ؟ الحرص آلة الاجتهـــاد . والحرص لا ينفع هنا ... هيهات أن ينكشف ما بين حدة البصر وصفوه إلا للجسارة التي تترفق . ينكشف سرًّا ، عفواً ، فيندفع سهماً رشيقاً من معاقل المعرفة الى ناحيةٍ يتفرغ فيها الواقع من الاثقـال ويتنزه السعي عن التكلف ، هنالك بمعزلٍ عن الخطوط الواضحة المستقيمة ، كالتي تحبس هذا السهل في جهاتٍ أربع : قصراً طوّقوه بالمرمر الزائف .

الإمام

ها ، ها ! كلّنا قد فهمنا .

أصوات رجال

كلنا . كلنا .

ألرجل الأول ساخراً

هذا والله حكيم .

زينه مشغولة بوجدها . لفدا

ألا ترى الى شوقي كيف يجيش ؟

فدا

للشوق رسالة : أنْ يجزّ ولا يكفّ ... اذا استرسل المراد صدىً القلب .

الرجال من بعيد يرفعون أكتافهم تهكماً . هادي يخرج من خلوته ويقترب .

المرأة الأولى مستهزئة

عظيم !

زينه للمرأة الأولى

ما شأنك ؟ حديثه لي .

المرأة الأولى

طيّب . طيب . ماذا قلت ؟

المرأة الثانية للأولى

خلّيها في حالها . عشقت مجنوناً .

المرأة الثالثة للثانية

عِشق المجنون ... يا عيني . يا عين . مَن يـدري كيف تطيش المزّات بجنبــه ؟

المرأة الأولى للثالثة

أمَا كفاكِ أزواجك ؟ ستة يا اختي ، واحــد ورا واحد ، وكلّهم فتوّة .

المرأة الثالثة

مَرّوا كالماء على بلاطة . بسْ يا حبيبتي ، الزوج عرفناه .

المرأة الثانية

وراء هذه التلّة عاشرت رجالاً من نار .

المرأة الثالثة

هؤلاء شعراء ، لا رجال .

زينه تظل مرتبكة في أثناء الحوار السابق . ترفع الى فدا عيناً يجول فيها عتاب . فدا يرثي لها صادقاً في صمت .

زينه في ضنى

أه ! [تمشي الى هادي كأنها تستنجد به] .

هادي

له حركة انعطاف

فدا

عجيب . أن تهبي نفسك لي أهون عليك من أن تهبيها لنفسك .

زينه

لا أجدُني إلا ساعة أهيم في طلبك ، أتعقّب طفراتك وهدآتك .

فدا

ظلٌ يلزمني . ما نفعهُ ؟

زينه

تحار منهدّة

فدا

في رفق

هل أجرُ ميتة ؟

زينه

جرّها . إن المّوس الدائر في سمائك لكفيل بأن يبعثها .

فدا

الحياة لا تأتي من الخارج .

زينه

الورد يحييه الماء .

فدا

يفتّحه ، لا أكثر .

المرأة الأولى لفدا

تُرهقها . ألفاظك خناجر .

زينه لنفسها

ودِرعى الفريدة، بل ثروتي الفريدة هي هذه السلسلة من الحسرات.

فدا لا يحفل بكلامها . هادي ينظر الى زينة في مواساة .

زينه تجعل يداً محتشمة على صدرها

ها هوذا يبكي . [في خفوت] يصيح .

فدا

القلب لا يبكي ، لا يصيح ... يُذعن أو يَحزنُ ... يَضيق بالصخب وبه يذل . لا تجد الصرخة مسرباً الى سمعي . وأنتِ يَحسن بك ، في يومٍ آتٍ ، أن تطوي حديث الوجدان فينبض في الضمير دَفقّةً من رفّات حياتك . دعيه هنالك نازحاً سارحاً تحت خمائل الحنان . [في خفوت] الجهر به تدنيسٌ له .

المرأة الثانية لفدا

قل ما تشاء . هي لا تملك غير هذه الخفقات .

زينه تعيد يدها الى صدرها. لفدا

إستمعْ اليها [صمت . في تضرع] إستمعْ .

فدا

مهما أستمع ... [له حركة نافية بلا غلظة] يثقلها التكلف، كيف لها أن تراسل أنغام خاطري .

زينه

هل في لوعتي تكلف ؟

فدا في شدة

أراك تبحثين عن دليل .

زينه

أطلبه من أجلك ، آه ! أأقنعك أني لك، بالرغم مني ... بالرغم منك.

فدا

بالرغم من الحب .

المرأة الأولى

ما شاء الله . يلفظ كلمة الحب .

المرأة الثانية

يا أسفي . شاعر ! ولم يخطر ببالي

النساء يأخذن في الضحك. الرجال يخرجون. الإمام يبقى منفرداً.

زينه لفدا

إذن لا تحبني .

فدا

هَبي نفسك لنفسك .

زينه

تنظر اليه في حرج

فدا

ألا فانثُري أنفاسك لآلئ وانظِميها سياجاً لبستانك .

زينه

فيَذبل كلُّ ما فيهِ .

فدا

بل كلُّ ما فيه — حتى العوسجُ — يُعطر صبَاحاتِ رجائك .

زينه في صوت خفيت

وأكون قد فقدتك .

فدا لا يسمع قولها

نمي نفسك يَعظمْ كلانا بصاحبه ... لا يَزخر المحيط من رشح جدولين .

زينه

لِكلٍّ غاية مبتدا . الماء يقطر فيسيح فيتراكب ، حتى اذا دبّ طمَس ذكرى القطَران ...

فدا

المبتدا هو الأصل . على قدْر التحفُّز يكون مـدى القفز ...
هَبي نفسك لنفسك ، أنتِ بها الآن أولى .

زينه — في تفرع

ألا تدع الجدولين يقترنان ؟

فدا

الغُنم في الامتزاج .

فدا ينثني عن زينه فيخلو الى هواجسه . زينه تمضي الى هادي وتستند الى ذراعه . تدنو منهـا إحدى النساء . صمت . َهنا تدخل من آخرة المهاد . لا يبصر بها سوى الامام فيسرع اليهـا ويهمس في أذنها . َهنا تجلس ناحيةً فتصغي الى بقية الحوار بين فدا وزينه في اضطراب مكبوت . الإمام يخرج وهو يرشق فدا بنظرات حنق.

زينه — بعد استرداد قواها تقبل على الهجوم

مخبول أنت . ألا تفيق ؟ قم ! َتلقّط الثمر المطروح في دربك.

فدا

فأسرقه من الأرض .

زينه

أنت جبان .

النساء يدهشن من جسارتها الفاجئة . هادي له حركة مختلجة .

فدا يسكن هادي بحركة لزينه

قد أكون جباناً . على أني غنيّ أي غنىً ، لأني أعفّ عن غنيمةٍ مبذولة مصيرها التلف .

زينه

بأيّ شيء ؟ قل لي بأيّ شيء أنت غنيّ .

فدا على مهل

بما شتت سدود قلبي ولم يشتت بعد سدود قلبك .

زينه

تغيظني .

فدا

ونفسي راضية . ما عليّ ؟

زينه

هذا كل همّك : نفسك ... ضميرك

فدا

ميزان الحق ، لم يعتدل إلا بعد خوضٍ في هول المحن . أسألت ثم كفّرت .

زينه كالساخرة

أنت خبرت المحن ؟ أنت ؟ لا تحسن سوى إنكار الحسرات .

أمّا توبتك فأنا أعلم بها : ذهنٌ بارد يراجع نيّات معقّدة .

هادي

يحرك رأسه استنكاراً

فـدا

هل وافيتُ الواحة الضاحكة إلا بعـــد أن سَبَرتُ من الآبار أبخلها وأبشعَها ؟

زينه

أبخلها ... أبشعهـا ، [تشير الى صدرها بضم اليدين عليه] وتزدري طعمَ الشهد ؟

فدا

لا يجيب وقد فطن أن
موقفة يفوت ادراك زينه

زينه في جفاء

أنت لا تحبني .

فدا

أحب فيك ما أحببته لك . [للنساء ضحكات مضغوطة لا يحفل بها فدا .]
أين القربان حتى يطيب جوٌ أملك بوائحة الثقة ؟ فيعينَني على صون ارادتي من كل خبث .

زينه

ويلي منك ! الظلم جالس في صدرك أنت . لا يبلغ ربٌ ولا

عاشق قسوتك . أراكَ ترفّق يداً ، جبلتَها من ثلج ، فتمسح بها قلباً أنت خلعته وصلبته .

فدا

يتعجب صامتاً

زينه مغضبة

ستكون أنت القربان ، أنت ! اسمك الذي طالما ناغيتُه فدللته بين جوانحي سأطرحه في حفرة الغِلّ [تشير الى الغيابات من حيث خرج الإمام والرجال] فتمزقــــه ألسنة تنمّرت في أفواهٍ سود [مهلة .] آه . ما أغلظَ الحنق عليك هنا !

هادي

لأنه اخترق الغُمّة .

المرأة الثانية تتأمل هادي . لصواحبها

ما أجملَ تلميذه !

فدا لزينه

اسمي يُمزّق ... لمَ لا ؟ للفورة أيضاً حق في طلب القربان .

زينه كأنها لم تسمع . تزداد غضباً

تردّني ؟ تردني ! أنا ؟ أنا أزحم النور طول النهار ، وفي الليل

أوقد الحسد في أحشاء الليل ساعة يَلفح وهْجُ طيفي هواجسَ أنامها الاستحياء .

النساء غيارى

هُو ، هُو ! [فيا بينهن] ونحن ... ?

فدا

هواجسي تتألق تحت أشعةٍ أهملت دوركم .

المرأة الثانية ساخرة . لفدا

حق . لا مثيل لك في هذا الوادي .

زينه لفدا

تودُّني ؟ ما قولك لو تركتُ أحد خصومك ينزعني من قبضتك ؟ لن يكون جباناً ، سيأخذني على حالي ... بل دون ما أنا عليه . أنت تُنكر سدود القلب ، أمّا هو فتأسره . [مهلة .] يريدني لأنه يحبني .

المرأة الاولى

يا بختَها !

فدا

يتفرس في زينه خائب الأمل

زينه مكابرة

نعم . يحبني لأنه يريدني .

المرأة الثالثة للثانية ، في وجد مفتعل

سمعتِ يا اختي ؟

المرأة الثانية تدنو الى هادي في شغف . ولكن هـــادي مشغول عنها بما يدور من نضال بين زينه وفدا .

زينه

يريدني . [النساء الثلاث يأخذ بعضهن بأيدي بعض في تدلل ، على ذكر هذه الكلمة .] هذا هو الدليل المكين، يخاطب حسّي بنطق بيّن . [مهلة .] أما الذي يرقص مع السوانح فيرنم في الغيوم فلا وجود له حين تتأوه النفس .

فدا بعد صمت

خبلتكم حنـــاجر تطبّل وتصفّر . أصبحتم لا تأنسون الى التغريد .

هادي له حركة تواجد تحير المرأة الثانية .

زينه بعد انطواء

ولكننا ، على الأقل ، أصخاب طرب . أما أنت فتحتقره .

فدا

طربكم ؟ هذه الغَشية ، هذا الانكباب على الأرض ؟

زينه يلهبها حب ممزوج بغلّ

أجل . هذا الرجل ، خصمك ، أراه ، أراه قـــد أكبّ على

وجهه . أفلا يستهويك أن أنساه عند قدمي ، يرتطم في ذله ؟ ألا يحلو لك أن تكون الغالب ؟

المرأة الثالثة للأولى

خبيثة والله .

فدا

لا بدّ للغلبة من مغالبة ... هل تصدّيتُ لخصم ؟

زينه

أنت جبان .

هادي

على مهلك يا زينه .

فدا

جبان ... ولكني قويّ .

زينه ساخرة

إيهْ ؟

فدا

ألا يكفيك برهاناً ما عاينتِه الآن في نضالي ؟

زينه

مَن تكون ؟ [في التهاب] من تكون أنت ؟

فدا

أنا الذي تحسّينه في تلك الحنيّة الغامضة . هنالك حيث الحواجز بين الحب والبغض تنهزم . أنا الذي تحسين ، لا أكثر ، لا أقل .

زينه في جفاء

انما أنت وهمٌ قائم .

فدا في هدوء

مِثل كلّ حقيقة .

فدا ينحرف عن زينه ويمضي الى العالية فيجلس على المرقى الاول ويخلو الى نفسه . جميع الاشخاص يخرجون ما عدا هَنا . القيثاري يدخل ويتربع على الارض في زاوية . فدا يدنو اليه . موسيقى بلا قيثار : مصدر خشوع . هَنا تسير الى فدا في رقة سحابة . تمد ذراعيها اليه ، وعلى وجهها مخايل من حب ملفوف برهبة . الموسيقى تنقطع . فدا يخرج من خلوته فيلمح هنا . يضطرب على الفور ثم يتماسك . ينهض . هَنا تخطو بضع خطا لتحول بين فدا والعالية .

فدا

يا حبيبتي !

هنا

تتطلع اليه حيرى البصر والسمع

فدا في صوت خافض

نعم . يا حبيبتي ... آن أن تسمعي هذا الندا . فلطالما أمسكتُ

عنك لغطَ الضلوع ، مخـــافة أن يُعطّل لطافة حَدْسك .
[صمت في عمق] الحدس ... أتدرين ما هو ؟ ـ سياحة السمع في محراب المحجوب ، حَوَمان الوهم على لهب العرفان .

هنا

يأخذها الحديث على قلق

فدا

الحدس الممتع ! [في خفوت] ها هُنا ، عن يمينك روضة ينمنمها البنفسج . تُباكرينها وحدك ، والوجه حُرٌّ يستندي بهجــة الفجر ، فيرفع له الكون فـــاتحةَ انجيله . يتواضع لها الجفن فيصونها قبل أن يدبدب النهار فيَفُضّ الرشائق . وفجأةً تغزو عزلتك فتجرحها كوكبةٌ من الصبايا ـ صواحبك ... تصيح صبيّة : ما أبهرَ الروضة !.. يا للصيحة الآثمة ، صيحة طاعنـة ، مزعت ستْرَ النجوى : ينفرج الجفن ، ينزعـج السحر ، يفرّ . فتستردّ الأشياء حجومها وأشكالها ، تضرب بها الحواسّ فتُفيق ، أفاقت بعـــد أن ذاقت رحيق الفتوح ... يا ضيعةَ الفراسة ! أصبحت العين لا تأخذ الا الذي تراهُ ، وارحمتاه لطَرْف الخفاء ! [مهلة .] أعرفتِ الآن ما الحدس ، يا حبيبتي ؟ أمسكتُ عنك من قبل لغط الضلوع حتى يَطيب لشعورك أن يتوجسها فيتمثلها فيسهرَ لها . [على مهل] الحب ، كالجمال ، هو البريق الموّار في الياقوت الرقيق ... الحب ، الجمال ، ماء الجواهر لا يفعل فعله الا اذا رَعش من وراء حجاب ، نسجوه من أهداب حُور . يا حبيبتي ... يا غرّة الرشائق .

هنا

تدنو من فدا وقد أطربها
حديثه. تنصب وجهها له مستزيدة

فدا

ما أحراني الآن بأن أناديك : يا حبيبتي . هذا موعد الفراق . لحظة يُنزع حسٌ من حسّ تتهالك الألفاظ عند حنجرة تنشرم . فلا يحق الا للفظٍ قُدسيٍ أن يغلب حاجزاً من دماء ... اني قاصد الى حيث تَسبح تراتيل لا تنفصل أبياتها ولا تتمهل . في تلك المناسك أغوص على نغم نجا من التشتت ، تمدّ رجعَه في أنفاسنا هنا كلمةُ الحب . [مهلة .] اليومَ لي أن أقول الكلمة — يا حبيبتي — لأني قريب الانعقاد بالقوة الراسخة ... آه كم يُضحكني الناس حتى النساء متى ردّدوا ، في نبرة جازمة ، عباراتٍ تقتبس من حمو العواطف . وربما صفت نيّاتهم حين يذكرون الحب ، لكنهم يَحفّونه بأصواتٍ يقتطعونها من طنطنة الصبوات . فسرعان ما تحرّف إشارات الضمير ... شفةٌ ترقّص الحديث ، والزمان الماكر يُرهقها بمهاز هلِع ، تتهاوى الحروف ثاراً فجّة ... نحن بشر ، حركاتنا هي المزلق الى سرداب الموت ، أما الحب فحابس الدهر الدائر في دوّامة وجد .

هنا

لها نظرة هائمة . تتساقط
على أول مراقي الجبل .

فدا

أتخشَين أن تشغلني الأبدية عنك ؟ هوّني عليك . لا أهواها ،

لا أطأطئ لها . انما أُريد أن أروضها .

هنا

ينسحب على وجهها الوجوم

فدا

لا ، لا حبيبتي . على جبينك ألمح دبَّة الجزع . بالله لا تغاري من الأبد . شرُّ مطامعه لن يزحم شمسَ طلعتك حولي . انما أنت التي توشدينه الى بابي حين تقذفين في همّي شعاعـــاً غضّاً جذبتِه من براءتك ، فيوقد في رجولتي غضباً للحق .

هنا

غير مقتنعة. لها حركات
تمّ على البلبلة في أسى .

فدا

أنتِ والأبد تلتقيان : كلاكما يكشف مباسم النعيم . اطمئني ، هذا كل الشبه . انما هو الصراط الى صرحك ، وهنالك أجلس اليك – ندّاً طلب الند – أطارحك رهائف شدوك : أنتِ امرأة تستودع حبيبها هِزّة عالـمها المغلق، فتَسقي فؤاده لألاء البلور . أما هو ، الحبيب ، فرجل أنزل الممتنع الى السهل لما عقد بين البقاء والفنـاء : شرّد الحدود فأصبح يَسَعُ الأشياء كلها ولا يَسَعه سوى فردوس فرحتك... يا حبيبتي [مهلة .] عليّ أن أمضي .

هنا

لا توافق . لها نظرة تفجع

فدا

عليّ أن أمضي ... أن أسرع فأتلقن كيف أجعل بعضي يُذكي بعضي، إذن يسطع وجودي من ذات نفسه ، فأردّ اليك الشعاع. صوني حرّه في حريرِ جفونك . يعينـــك يوم تستوضحين شرراً يطلقه جبيني ، يَهديني الى مقدِس حنينك ... عليّ أن أمضي ، أن أصعد .

هنا تمد ذراعين تنطقان باليأس . يأخذ الرجل في مراقي الجبل . يخرج القيثاري من مكمنه . فدا يلمحه .

فدا للقيثاري

أيها القيثارْ
رفرفتَ نشيداً هامْ
ضَجِر من أوكارْ
عَلـّقوا بها قصيداً دارْ في كعبة الوطن .

أيها القيثارْ
قـلقٌ عجول
يَنشد الثارْ طابت
تحت شمسٍ ما راودها حِسبان
أيها المتمرّد في وادٍ هانْ حزَمته مخاوف الصّغار

أيها القيثارْ
يا أخي في الظما

أين أهازيج أنهارْ صَدقت عندها الأساطيرْ
تُغري هَوَج الأوتارْ فتهتف حرّة مرحةْ
هاتِ شيّعْ جهادي في مهاوي قفارْ
طوّحَ أطرافَها نصيبي الخطيرْ .

فدا يصعد في عزم . ظلمة . تقاسيم على القيثار .

الستار يسقط .

المرحلة الثالثة

من الآن فصاعداً يبرز في صـــدر المهاد كوخ يحجب داخله ستار جاني . هنا على الأرض بقرب الكوخ . القيثاري في الغابـــة اليسرى ، يبدو من القيثار طرف العنق مع بعض الملاوي . في هذه المرحلة لا يحدق أحد الى العالية ، فيكون النظر اليهـــا مخالسةً مع أكفّ مبسوطة فوق الحواجب .

هنا تلتفت الى الغابة اليسرى

أيها القيثارْ
يا حِمى صبابتي
سأحكي لك سَفْرةَ ليلة
حُلماً سرح ، ترنّحْ
أرسلْ من حوله ألحانك تحبسْ تَيهانَهْ
أدركْ ضلوعي زَحمَتها وساوس الرعب .

زينه تدخل من آخرة المهاد في خطاً مسترقة . تستمع الى هنا في حسرة وبلا ضغينة .

هنا تحكي والقيثار يراسل حديثها بائتلافات مضغوطة ومتقطعة

رأيت صخوراً توشحت بالياسمين . أخـذت ترقص دوّارة . بين

لفّتين لحتُ اليه يصعد ، شبْحَ شجرةٍ يبس عودها وقسا . ظلّ الشبح يسرع من مرقى الى مرقى ، تدفعه يدان على مثال يديّ ، إلا أنهما من صوّان . كان الليل أسود ، ولكنْ في غيابة جفني فزّ برق . ما كنت أجرؤ على ندائه . هل أقفه فأعوّقه ? في تلك اللحظة أدركت أنه لا بدّ له أن يمضي . [مهلة .] فجأة تلفّت زفيره وجعل يناجي عفّة حسي :

[ها هنا يعلو صوت فدا بهذه الكلمات في بطء] « البعد يُدني الأشياء ، يدنيها في الخاطر ... بين وجه الدنيا وقلبها موجودات تهاجرت وتفاوتت ، ثم نهض بعضها يسعى الى بعض يستشفّ ، فالتقت وتواشجت وراء الأقاليم المطروقة ، عند قفرٍ تصول فيه رياح القلَق . هنالك يأبى الكدح أن ينقضي فيطمئن ، لأن الممكنات لا تنفك تبرز للعزم مستطرَفة فتستهويه . [مهلة .] لا راحة هنالك ! انما الراحة نصيب مشاعر حرصت على الظفر بما تشتهي وقد رفضت رعدة النشوة ... نشوة تُضني ، وتُغني ؛ متى غلبت العصبَ شدّت الفؤاد ، فيهبّ الظنّ ويمرح وقد شرع يؤلف بين طائفة من القوى ، كان الكون بعثر عقدها لِيَمدّ بساطه ، فذهبت مذاهب حتى بدت كأنها في شقاق منذ الأزل . [مهلة .] في هذه الليلة كلّ ما يضطرب بين الأرض والسماء ينقاد لمُعجزة النشوة . هأنذا أخفّ الى بروج الظنون ، لعلي أعثر في مسابح الأثير على النفَس الزاخر . ينتظرني ، فلطالما لمعتْ آيةُ مصيري تحت ركام السنين . [صمت .] أصبحتُ بعيداً عنكِ ، فانقطع الحبل الظاهر ... أنا ابداً معك ، وأنتِ معي ... لا شقاق بيننا : نبضٌ الى نبض يهتدي عند ميثاق الأنس ، تحت جناح الديمومة . نحنِ كالنقرتين على صدر دُفّ ، كلتاهما الآن في

سبيلها ، سوف تشتبكان يوم يُدوي طبل النصر وقد نشز على الأوزان الدارجة . حينئذٍ يلتصق القلب بالقلب ، يقتسمان عبء الغبطة . » [ينقطع صوت فدا .]

[تعود هنا الى حديثها] عند هذا الحد ذاب الصوت في العلا . حدّقتُ فقرأت في وجه الحبيب حظه الأرفع : حروفاً وشّت الخدّين بلَهَب فطهرت . أمـــا أنا فبقيت حيث كنت ، أتأمله عسى أن أحزر ما تكون إتاوة النصر ... عجزت عن الحركة : حجزتني الارض رهينةً لقاء فكره الجسور . فجأةً وقف الدهرُ معي ليُحكم قرع الضلوع بمطرقة الوعيد . [مهلة .] خفيَ عن بصري . عدت الى نفسي . أخـــذت أنحدر . واذا أناملي تسحر ألفافاً من الشوك ، فتَخلُص لها براعم أريجها مُقنّع : نسمةٌ من خفَر الحب . سرعان مـــا افترّت الورقات عن مكنونها. جعلتُ أنثرها في حِجر شجرة يبس عودها وقسا، هبطت من مروج السحُب . ويلي ! هذه الورقات يُفتّحها البِشر ، هل تستطيع أن تُنضّر العود وتمسحه برقتها .

زينه مزعزعـــة . القيثاري يعلق على حلم هنا بلحن منطلق . هادي والقوال ثم الفلاحون يدخلون من آخرة المسرح في أثناء ذلك . على وجوههم جميعاً لوائح ألم بليغ . ينقضي اللحن فتنهض زينه مقلقة وتسرع الى هادي والقوال . هنا لا تفطن لما يجري حولها وتأخذ في الإنشاد فيجمد الجمع .

هنا تنشد

غمزُ قيثـــارِ مغتربِ
سلسل الوجدَ بالطربِ
حبس الأمسَ في وترِ

جُنّ من جَسّ مدّكرِ

سلسل الوجدَ بالطربِ
نفضُ نَوْبات منجذب
شغَلَ العجزَ بالسفرِ
علّق القلبَ بالخطر

حبس الأمسَ في وترِ
واردٌ جامحُ الشرد
من أساطيرَ كالحبَبِ
رقصت في دُجى الحقب

هادي في خفوت

نشيدها لمن ؟ . .

القوال

يقطع على هادي الكلام بإشارة

هنا تتم النشيد

جُنّ من جسّ مدّكرِ
وَتَرٌ مُسلٌ من حسَر
مدّ حَرّ الهوى اللجبِ
في سما وهمٍ ملتهب

غمزُ قيثار مغتربِ

القوال

يدنو من زينه ويهمس في أذنها

زينه

بعد انطواء

آه .

هَنا تلتفت دهشة . صمت طويل كله توجّع . الجمع ، في مقدمتهم زينه ، يخفّون الى هَنا . يتناظرون مرتبكين . يريدون أن يقولوا لها قولاً ولكن أحداً لا يقدم . زينه تعتمد ذراع القوال . هادي له نظر تائه .

هنا تتفرس فيهم . في صوت ساذج

اليوم لم يسقط الحجر .

زينه تسرع الى هنا ، تعانقها ولها ابتسامة تحسر

آه ، ذلك العود الذي يبس وقسا ! أقبلتِ عليه تنعشينه فأخفقتِ .

هنا

تُلقي برأسها على كتف زينه

زينه

أنا وأنتِ ، غُصّة الى غصة ، ما وجدنا السبيل اليه . [القيثاري يرسل بعض ائتلافات رخوة .] أيّتُنا بذلت أعظم الجهد في صرفه عن مراده ؟ هل أدري ؟ هل تَدرين ؟ نحن النساء لا نقيس البيداء اذا قطعها قلبُنا على هَلَع . [هَنا تأوي الى كوخها ساهمة .] أنا وأنت

تألّفنا تحت حكمه . [مهلة .] ما أضعفَ المرأة بـــين يدَيْ رجل اذا أحب تعدّى شأنَ نفسه فطلب العشق لوجه العشق .

اللفيف يدخلون في تهجم .

أصوات في اللفيف

مات ...

اللفيف يجمجمون في حين زينه تدخل الى الكوخ وتخرج منـــه بعد قليل .

زينه في رقة

هسْ . [اللفيف يكفون عن الجمجمة . زينه تشير الى الكوخ] خَلَت الى روحها تنشدها آخر نشائدها .

موسيقى غائمة . صمت . بدء الظلمة . زينه تقترب من الكوخ فتقف مفجوعة . هادي يسرع اليها .

زينه

ماتت . [في خفوت] جاء دورها .

ذهول شامل . زينه واثنان من الفلاحين يخطون بضع خطوات : رقص الندْب ، بلا موسيقى . ثم يشرعون في صلاة خافتة . هادي وسائر الفلاحين يحذون حذوهم . القوال يستند الى الكوخ مطرقاً . اللفيف يسترسلون للنوم حيث هم . القيثاري يدخل ويتوجـــه الى الكوخ . يخفض عنقَ القيثار حزنـــاً . يتصفح المشهد ثم يخفي . الظلمة تنتشر .

الستار يسقط

المرحلة الرابعة

الفجر طالع . القوال يبدو كأنه يتوجس جَرْساً من جهة مراقي العلياء . تبدر منه صرخة . فدا ينحدر وخطاه متئدة . أما وجهه فعليه مِسحة الغيب . الجمع يتنبهون . اللفيف كالمسحورين يحيطون بفدا . هادي يعانقه . زينه والفلاحون في ذهول . في أثناء هذه المرحلة لا يحدق الى العلياء غير فدا .

أصوات في اللفيف

أنت ؟ حيّ !

فدا

لِمَ لا أكون حيّاً ؟

صوت

لماذا عدلتَ عن إلقاء الحجر ؟

فدا

الى من ألقي ؟ اليكم ؟

صوت

على ذلك اتفقنا .

فدا ضجراً

آه .

الكسيح والأعمى يدخلان وعليهما أمارات الاضطراب .

الرجل الأول

لما قلنا : مـــات فدا ، حلم الكسيح أنه رقّاص واللفيف أنه رسّام . [يقهقه .]

هادي

الشماتة فتّانة .

صوت لفدا

هل أكلتَ من العشب ؟ لقفتَ السرّ ؟

فدا لا يجيب . اللفيف يتساءلون . صمت . الإمام يدخل كالمقتحم .

الإمام راضي النفس

طمعتَ في مغامرة توعرت عليك ، فقصّرتَ . أمَا كنتُ أنبأتك ؟ حجراً حقيراً ما قدرتَ أن تُلقي .

فدا

يرشقه بنظرة يليها غضب متجهم

الإمام

لبستَ الغطرسة فاحتجبنا عن بصرك .

هادي يسرع الى فدا . في صوته رنّة عتاب

أحقاً نسيتنا .

فدا لهادي

[في اشفاق] نسيتكم . [يشير الى اللفيف تقدمهم الإمام] لكنهم سرعان مـا يخلطون الكبرياء بالارتواء . [مهلة .] حدّثني نبوات القيثـار . رمتني في تيهٍ من الطرق الخوانق ، نـثر الجنُّ فيها فنون الخدع . ما زلّت قدمي مرة . أدغلت في أحضان الليل . في النهار ، خانني بصري تُزيغه حجارة نحتها السيل فبرقت برقَ أبكار الجواهر . على غفلة وجدتني أسيرَ أجمة . من هنا ومن هنا شجر ينصب سهاماً رؤوسها عناقيد وهّاجة : ستائر تحمي ملكوتَ الأمان ... عند هـذا الشوط في العلا تخلخلت النبوات حتى انقطعت ، لأن تحنانـها علِقت به رواسبُ من شواغل الأرض . [مهلة .] ضللتُ الطريق . ركعت أتضرع ، وسَجّادتي أضراس الحجـارة . فإذا نشيد من وراء السهام تتناثر مدّاته ولا تَبين الحروف . تسلّل من بين العناقيد وفي رعشاته رَجعـات صدر تَخلّع : هفّةٌ رفق . فتّت الحجارة ، نهضتُ وقد لَفحتني تباشير الوعد . عَطَف النشيد الى جبيني . عقد عليه مقاطعـه يسلسلها شهاباً بعد شهاب من هالة الخُلد : انشقّت أمامي مجاهل الأجمة ... ما أبهجَ الفُرجة ! أخذتُ فيـها أترقّى وأدور على

شُرُفات سحاب . هنالك نسيتكم . طاحت الدنيا في قــاعٍ من التوافه . [مهلة . في اضطراب] ثم انحلّ النشيد دفعــةً . أحسست بالحقد يتصاعد من سهلكم ، يتراكم على كفيّ ، فانسدّت الفرجة . [صمت] أين النشيد ؟ قمت أُطـارد أصداءه ، تعثرتُ ألف مرة . وهأنذا لا أزال حيًّا بفضل هبّات ، لها في جنبي رفيف رهيف . [صمت طويل .] مَن كان ينشد ؟ [صمت طويل .] مَن كان ينشد؟

الجمع يتناظرون في ارتباك ثم يتفرقون . يبقى فدا وهادي وزينه. أمـــا الأعمى والكسيح فيجلسان على انفراد يتحادثان بإشارات متهدجة . الفلاحون يتثنون الى حقـــل السنابل . القوال منهدّ ، يُبرق عينيه نحو الكوخ .

فدا

مِن هذا الروض طار النشيد . هاهنــا تلتطم أصداؤه ، وفي صدري تلتئم .

زينه بعد لحظة تردد

مِن هذا الروض .

فدا

مَن كان يغنّي ؟

زينه تمضي الى فدا ، تأخـــذ بيده في اشفاق الى الكوخ ، ترفع الستار . فدا يدخل ثم يخرج مزعزعاً . القيثاري يجتاز آخرة المهاد .

فدا همساً

مَن قتلها ؟

هادي

الحجر الذي لم يسقط .

فدا

يحاول أن ينطق فيشرق بالكلمات

القوال

تلك المقاطع كانت دفقات من غيث الحب ، أحيتك ، أما هي فغَصَّت بهـا ... يا ويحَ النشيد وَصل فيضَه بإعجاز مشيك هنالك : ودَّع الوادي مجنوناً بك ، مسَّك ، استخفَّك ، أترفك حتى هزأتَ بمرارة تربتنا وأنكرت أهلها .

زينه بعد مهلة . في هدوء

فتَلفت طفلة تُنشدك روحها ، وجسمُها بكوخها مسمَّر . وقف الإنشاد ، فاذا الوحشة حولك تفرش عبوسها . ضللتَ الطريق ، خفيت المعـالم على وجدانك لما طوَّقته بالقسوة ، لما نسيتَها . [مهلة .] هأنت ذا فوَّضتَ عذابك الى يديك ... ويلي على يدٍ طاهرة أذنبت !

فدا

ولكن ... [يُعجزه التعبير . يمن التفكر] .

زينه

يد طاهرة .

فدا

طائشة ... أجل ، تسرعت في العصيان على حكم الحضيض . مَن راح يطلب طعم السماء فعليه أن يتزود بمذاق الأرض ... الأرض ، هذه الحقيقة المعمورة بالشوك ، خُلق ليُرهف الوجدان ساعة يستبين المعالم . [فدا جد مضطرب يدنو من الكوخ ويلمس ستاره في حنان ،]

هادي يشير الى الكوخ

انطفأت كما تنطفي شعلةُ معبدنا ، خانها زيتٌ سرعان ما نفد . لا أنين ، لا نشيج .

فدا لنفسه

خانها الزيت .

زينه والقوال

لا أنين ، لا نشيج .

فدا

ما قالت شيئاً قبل أن تمضي ؟ [في خفوت] هل نادتني ؟

زينه

ضممتُها الى صدري ، رمقُ شكواها في عينها ترقرق .

فدا يمد يداً تستجدي ، لعل زينه تردد سرّ الشكوى

زينه

والهفي ! لا يردّ الرمق الا القيثار . [تلتفت الى الغيابة اليسرى حيث القيثاري واقف] يا أخي ، ألا تُحيي لحن الوداع ؟

القوال القيثاري

بأظفارٍ من حريرٍ هلاّ تنبشُ فواجع البشر .

يعلو صوت هَنا يساوقه القيثار في خفض . هنا تنشد نشيدها خافية عن الأبصار . اللفيف يدخلون في أثناء النشيد يتقدمهم الإمام . اضطراب شامل . زينه تنزوي فتخلو الى نفسها .

هنا تنشد

الليلةَ قلبي على سرّه انطوى
حقٌ لؤلؤة ما غمزها ثاقبٌ
يَرمقها لمحٌ رفيقٌ
هوى من كُوى محاجرك .
أين أنا منكَ ؟
السُّها لك ، تطوّعتَ لكفاح الأفق بجناح الجوى
ولِيَ الثرى ، من هُنا اليك يفزّ حنان الرجا فيُشرف
على نَهمَاتِ شططك .

لمحٌ رفيق
فَوْحٌ من لهفٍ فيك ، وُلد في غاب الغرابة
طار في أثيرٍ يرهقني .
أنت مشغول بالكمال

وأنا ظلّك الصبور ، أجرّ جيشاً من الجراح لم ينفر من حصنَ الضميرْ
نواحيَ الصامت حداءَ همّك الكبير

الإمام لفدا

ما أروعَ ما صنعت ! ساوعتَ الى الأبد وقذفت الموت من خلفك .

فدا

لا يجيب غارقاً في التفكير

الإمام

صامت هذه المرة .

فدا رابط الجأش

الموت عثرة عارضـــة ... هي راحت في يُسر : لا أنين ، لا نشيج . انما الجرم أن نهلك تحت شناعة ظلم .

المرأة الأولى لفدا

كنتَ ناديتها : يا حبيبتي . هل يُترك الحبيب ؟

فدا

أجل . حتى يُفتش عنه في حُرقة الشغف .

المرأة الثانية

وهناك يذوب فيُفقد .

زينه تخرج من خلوتها

لا يُفقد من كان معقدَ حبٍّ محض .

هادي

ينظر الى زينه مشدوهاً

زينه لهادي . في تجلّ .

الآن أُدركُ . ساعةَ ناداها : يا حبيبتي، على شفتيه تألفت صرخات الجسد وهمسات السريرة ، فانطلق لهيباً الى الذرى ، هنالك حيث تموت العداوات فلا خُلفَ بين خشونة ونعومة .

فدا

والى هذه الذرى أعود .

الإمام

يعاوده نَزَقه .

فدا

هذه المرة أصعد لغرضين : أسلب المغارة كنزَها ، وأحاسبها على قساوتها ، ويح هَنا !

زينه

بالله لا تذهب مثقلًا بالحنق . أتذكر ما نبهتني اليه : « على قدر التحفزّ يكون مدى القفز . »

فدأ

يزول الخنق ما دام الوجهُ الى فوق .

زينه

ويلي عليك ! تذهب ولا يعينك نشيد . ماتت َهنا . هل أستطيع ان أُغرّد عنها ؟ لا ، لا . أحبتك وهي تجور على نفسها : جمعت في عزمك الاصم ألطاف ثروتها الدفينة ولم تفطن لقدرها . أما أنا فعظّمت مـا أملك ، فلما وهبتُه لك كنتُ لا أحب سوى نفسي فجُرتُ عليك . كيف إذن أُغرّد ؟ أخشى على المقاطع أن تُكدرها آفة الأثرة عالقةً بشفتي ... الآن تبيّنتُ الآفـة . أجل ، أصبحتْ عيني تلمح ما كان فاتهـا ... بعضَ ما فاتهـا ... ما أبطأ الظلمة َحين تغادر مغاور النفس .

الإمام

زينه ! ما هذه الحماقة ؟ ما هذا التجديف ؟ النفس إشراق .

زينه

يا لبساطة عقولكم ! آن لي أن أهتدي الى فتنة الحياة . [تلتفت الى الكوخ] عن قريب يغسلني النور يوم َتعصر أحشائي فزعةٌ كالتي َنفضتني الآن . يا لهفي عليكِ يا َهنا .

هادي

سناهُ الروح لا يبتسم على الجبين الا بعـد رجفٍ وصعقٍ في الضمير .

زينه لفدا

هأنذي ألامس غرّةَ الحق . حدثتنا عن تيهٍ من الخوانق نثرت فيهـــا فنون الخدع . ذلك هو المنفذ الى صومعة النفس ... [تشير الى اللفيف] النفس التي ما سبروها فتطوحت حولها ظنونهم . [مهلة .] متى تنزلُ بي فزعة أخرى ؟ [تنظر الى فدا متفجعة متخوفة] حماكَ الله ! نفضةٌ بعد هذه وسرعان ما يهبّ بي جناح كشاف حتى الشوط الأخير ، هناك حيث المنفذ يضيق ، يختنق ، هنالك عند ثغر الفرجة ــ سموتَ فيها ثم انسدّت ... نفضة بعد هذه ، [تسرع اليه] ويلي عليك !

فدا يدنو من زينه منعطفاً

حديثكِ عجب . لا أكاد أعرفك .

زينه

وهنا سعــادتي ... أنت عازم على الصعود . لا أحجزك الآن . [للفيف] دعوه يذهب .

الإمام

ركبها الشيطان .

زينه للفيف

ما أجهلكم ، ما أغباكم ![لفدا] لا أحجزك. لا [تودعه بنظرة وتمضي الى طرف المهاد] .

فدا يتجه الى الجبل . القوال وفلاحان يسرعان اليه .

القوال في صوت متهدج

قبل أن تصعد ، خبِّرنا ــ فقد تطول رحلتك ــ خبّرناً ، أنت الذي يجسر على مطاولة الأبديّ : هل وجه الأرض باطل ؟

فدا تلمع عيناه

باطل ؟ [ينفي بايماءة ثم يتماسك] قد يكون ... من جراء الدم السمح تبذلونه في غفلة ... آلام البشر تغذو غرور الطين . [مهلة .] الأرض ، كمثل السماء ، جديرٌ بها أن تُكتسب ، لكنها لا تمنح كنوزها حرّةً الا اذا استعرت بجمرات الأنفس الزكيّة ، فيعتز عليها كلُّ هيّن ، وفيها يتأصل كل عارض ، حتى تفاحةُ الرمال تتبخر في تماويج سراب ، سراب يرقرقه خاطر متشوف ... انما العدم نحن البشر اذا لم نمدّ حبالنا الى قبّة الخيال .

فدا يصعد . الأعمى والكسيح يتأملانه . القوال ينصرف الى باب الكوخ . الفلاحان ينقلبان الى حقل السنابل . اللفيف يتهامسون ثم ينفضون . هادي يجلس ناحيةً ويتفكر .

زينه لنفسها ، وفدا صاعد

خذ سبيلك الى بروج الظنون . قبلتَ الرهان لما حلفتَ أن تتجسس قبلةَ البعيد . فاستبسلْ . نعم أزيّن لك المخاطرة ... لا يحق لأحد أن يقمع المستميت في تفجير النبع ، لا سيما اذا تلوّح صدره فاقتات من رشاشات قروح ... هأنت ذا عبأت الشقاء في عروقك لتَسبى النعماء . وسرعان ما تحوّل وجودك الى الخفا [يغيب فدا عن الانظار] . بعُدتَ . لستَ الآن سوى صدىً

شَرود . أيُّ فكر يستطيع أن يرصدك ؟ هل أنت حيّ ، هل انت ميْت ؟ [في بطء] ليس بين الحياة والموت غير درجـــة ، تدِقّ عن اللحظ ، مموّها المحبة : هنالك من يلفّه الفتور وهو متوع بالحياة ، وهنالك من يهرول ومهازه الموت : هذا يزدري الدرجة وذاك يجهل خبرها . أما أنت فعن كلا الحزبين غريب : وَلَعُك بالحياة يتّقد حين تلاعب الموت . ما أحسنَ مـــا ترفرف فوق الدرجـة ! لا رفرفة ألعبان يتذبذب على حبـل توتّر . هذا خطر تستهين به ، لا تجد عنده شرف الروعة . لا ! إن الدُوار الذي يترقّبك ـ مـاذا أقول ؟ ـ هَهْ ، إن الدوار الذي ترعـاه في نفسك أبلغ هولاً وأبعد استهواء ... أتراك جرّبت الحب ؟ هل تدري ؟ تطالب الحب بما يفزع منه الحب نفسه : تبتغي الملء الطافح . [مهلة .] لك هذا ، وأنا أجاريك... متى نلتقي ؟ واحسرتاه ! أنت تحيا متهالكاً على غمام الموت ، وأنا لا أزال أعاني الشره الى برق الحيـاة . بيني وبينك الآن حفرة . رُكزت فيهـا حراب تسهر لدمائنا . لن تنفلّ فينكسرَ جشعها حتى أُشرف على الفرجة : قِبلة البعيد . متى نلتقي ؟ إنْ أنا أسررت اليك الآن : أحبك فيهات ، لا أجذبك . لن يقدر استسلامي الا أن يهيج الدوار ... يهيج الدوار . ليتك تسقط ! [يزعزعها هذا التمني] حماك الله ! [تعود الى التمني في صوت محبوس] آه ! تسقط فألمُ النثار فأحضنه ... أحضنك ... اذا أضاع المرء ذاته فما أسعده حين يضم أشلاءً تختلج ، أشلاءَ الجسد الذي هاجرتْ اليه ذاته . [مهلة .] عندئذٍ بعد طول التلوي تنفسح الغمّة ... أهلًا بالفرجة ! إذن أجدك في عجاج الوله ، فألمس ما يفوت اللمس ،

فوق تلك الحفرة . ولن يقطر مني ولا منك دم ، لأنّا نكون قد عبَرنا الى ملكوت الأمان .

صمت . القيثاري يدخل ، يهمّ بجسّ القيثار ، يتردد ثم يكفّ . القوال يأخذ بذراعه فيخرجان . الأعمى والكسيح يلحقان بهما في بطء وهما يتناقشان باشارات موجهة الى الجبل .

زينه تنظر الى حيث صعد فدا

دعني أودعك ، أطوف حولــــك بجوارح أصبحت تتنفس عند حافـــة الغيب . [ترقص رقصة هفّافة ، مجلوّة الوجه . موسيقى غاية في اللطافة .]

زينه بعد رقصتها تغيب في الكوخ . هادي لا يزال في تفكره . في آخرة المهاد يترنم الفلاحون ببيت النشيد « أنا أسطورة الزمن » .

الستار يسقط

المرحلة الخامسة

اللفيف يدخلون فوجاً فوجاً . الإمام يلحق بهم .

الرجل الأول

سقط .

اللفيف ضحكات استهزاء سريعة . هادي ينتفض . زينه تخرج من الكوخ . الفلاحون يأخذهم الشدّه فيكفّون عن الترنم . صمت . القوال يدخل .

زينه في هدوء

أين سقط ؟

الإمام منتصراً

عند طرَف المرج هنالك ، طرحته المنيّة وتربعت على صدره .

المرأة الأولى

آه المنيّة ... عشيقته الحظيّة .

المرأة الثانية

عرف كيف يختار . عشيقة ماهرة ... عضّاضة ، نهّاشة ، حقـًّا فاجرة . الخبرة كلها عندها . أما نحن فيا حسرة علينـــا : زرع أخضر .

زينه تتقدم . في صوت متمكن

هلمّ ندفنه .

القوال

هلمّ .

الإمام يستوقفها

مهلًا ! بل نحمله الى خيمته فنحرقها تحت بصر الفجر .

هادي

كلا !

زينه

وَيْ من قساوتكم .

هادي

ويُشهدون النور على عتمة قلوبهم .

الإمام

لا يستحق بطن الأرض ، كم هزأ من وداعة سهلنا .

زينه

أما أراد الا تمجيده .

هادي

وفاتكم ما أراد .

الإمام لزينه

غمزكِ مرضهُ ، ولا شفاء ... عجيب ! مِن قبلُ لما كان حيًّا صاولتِه رشاقة العين ، أما الآن فلا تبصرين الا بطرْفه المهزوم.

زينه

الآن أسترد جوهر نفسي : بعثٌ ، مَوردُه بوارق طيفهِ .

القوال يخرج . القيثارى يدخل ويتنحى .

الإمام

ها ، ها ، ها . تتكلم على طريقته : إبهام ، زَيَغان .

زينه

صحيح ؟

المرأة الأولى

ولا تشعرين ؟ ويل المرأة ، تعشق فتضيع .

زينه

أبصر بطرفه المهزوم ... ألمعية ضرير .

المرأة الثالثة

لو كان متّعك بحبه ، على الأقل .

زينه

ليس للحبّ أجل مضروب .

للنساء وبعض الرجال خفقات بالرءوس تعجباً .

زينه

ما دام القصد منصوباً في نهاية الطريق فمها تلكأ الركب وتلهى فهو عاثر بحجارة الحدّ ؛ عفواً ، في الظلام ... هو يحبني الساعةَ في غار الموت .

المرأة الأُولى

الساعة ؟

زينه

لو لم يُحبني هذه اللحظة ما كنت لأُبقيَ على حبي له .

الإمام

عار عليك . لم يَحفل بك وهو يغالب المنايا ، فلما صرعَتْه أسرعتِ فانتشلتِه .

زينه

أسرفتُ فلم يحفل بي : كان شمسَ شتاء لا يسمح بالنظر المليّ .

لو كنتُ أحسنت اللمح لكانت مقلتي غرقت في العطايا .

الإمام

عطايا أوهام ، راح يقتنص أشباحها . أيّ شيء جلب من غارته ؟ هل زوّدنا بما يسعف كدّنا في هذه الدار ؟ انما جاء بما يَمكُرُ بالرشد فيُدلس عليه الحماقة .

زينه

مكر ؟ حماقة ؟ لأنه عرف كيف يحدّث الضمائر ؟

هادي

يا لرقائق السمر ! الحمد لله ، أزعجتْ ظلالاً طالما أغفيتُم عند هدأتها البلهاء ... أقليلٌ هذا ؟

الإمام

ترّهات .. ! هَه ! كيف أخفق . طاح ! هذا كلُّ شأنه .

هادي يشير الى الفلاح

اذا انهدّ هذا الفلاح فإلى غير نهضة . تُربةٌ أكول مصّت عظامه حتى صُبابات الضنى ، وهو راضٍ يستمتع ببضع سنابل ... أما هو – هو الذي كتم في رئتيه مثل جلجلة الرعد – فمغنمه أن يطرح العدم الذي يحصره ، لكي ينهض بعبء الكون .

زينه متممة

لكي ينهض بسرّ المحبة .

الإمام يحرك كتفيه استهزاء

زينه مواصلة

هذا السرّ من حق البشر ، ما داموا ، في غفلة ، يتزاحمون في وادٍ مسحور ، شيطانه العشق ، ويبذلون في ملاعبه لحماً ودماً بلا حساب .

المرأة الأولى

تبذير لذيذ !

الرجل الأول

لذيذ .

يتعانقان . زينه تشيح عنها بوجهها وتعتمد يد هادي .

الامام

ذلك مغنم لا غُرم فيه . إنه مات، مات . البطولة ليست من دأبنا . دمنا عصير الضآلة .

هادي يوافق ثم يستدرك

عصير الضآلة . لكنّ البطولة من دأبنا ... القوة سهم من أفكار، الضعف قوسٌ في يدنا . حسبُنا الرمي، لا نبالي : أصاب، قصُر، جاوز . [مهلة .] قوتنا من ضعفنا تنبثق . بطلنا همومٌ تحترق .

الإمام

أراد أن يتحرش بالعلا . ما أوقحهُ !

هادي

لا . [الفلاحون يحيطون به] هل عانى كل هذا التصعيد حتى يهبط الينا فوق رأسه لواء الألوهة ؟ يا خيبـة المسعى إذن . متى ظفرنا بإلـه يمشي بيننا دبّ السأم في اطمئناننا . انما كُتب علينا أن نتلطف لشفوف الجلاله نستنزل منها في خلجاتنا .

الإمام للفيف

هيّا بنا نمضي ... كلاهما يهذي ... قُبحت هذه الحمّى ترجف أذهانهم .

زينه

الحمّى أتم نفعاً من السكينة ، حين تلذع الشعور فيتّقد لا حين تُعييه فيهمد .

هادي

هذا الضارب بالقيثار ، سقام الوحشة في تناغيمه . لكنّ جولانه في أتون الدنيا يلفح ألحانه فيُجددها بحاثةً عن أصل الحسرة .

الرجل الثاني يشير الى القيثاري

هذا نكرهه ُ ... يبكي بغير دموع .

هادي

لأنه من صَمت المحنة يستنطق العبرة ، ولكنُم يترك الولولة .

زينه

لا ريب أنكم أعداء الدُوار .

الإمام

عرفتِ الآن ما عاقبة الدوار . هلك صاحبكم لأنه استطال .

هادي

لا .

زينه

مضى الى العلياء يستطلع . هل وجد ؟ ليس المُهمّ أن يجد . لا ، لا : يومَ يلقي المرء ضالته فيلتحم بها فيأتي عليها نهماً أو تأتي عليه، تفتر السعادة ويرخص النصر ... إنْ تعانق إلفان على الأرض حتى انقطاعِ النفَس فما هما سوى حزمة من عظام متى نقرتَ عليها رنّت جرّةً جوفاء... ما كان للانسان أن يقتحم أريكة الله، وما أراد الله أن يهتك سريرة الانسان ، والاّ عاث في جنّات الخصب طوفان ، فتتلف ثمارٌ غُرّ عزيزة خلقت للأنفاس تتهاداها تحيات ودّ... الخير كله أن يتلمس الرب أثره في عبده، وأن ينقب العبد عن نصيبه من ربّه : غوصة فعثرة فرجة ، فتضوُّر فتجلُّد ثم صدمة ، يكون من ورائها الفوز ، فوز يبرمه حوار ، مواثيقه شهقاتُ محتَضر .

هادي

حينئذ يخفق القلب ، لأن جوهر الانسان تسامى : يُعطى ولا

يَفنى ، يأخذ ولا يُفنى ... تأليه الانسان مَضْيَعَةٌ لكونه ، تأنيس الله مَضلّةٌ لوجهه .

زينه

أجل . مات الحبيب وهو يعلّق وقته بدوام الله. في لحظة الوصل قتل الحبيب ــ الربُّ المحدَثُ ــ نفسه ، والذي قتله بَشرٌ كامن في أحشائه . الآن وضح كل شيء .

هادي

قتل الربُّ نفسه ، ولن يبعثه الا بشر . سيأتي يوم أتسلق فيه منارة الأبد ، فأسأل بهاءها ما يقتضيه الفوز من عروقٍ تنفجر .

زينه

خذ في طريقك ، أيها الطفل . لعلك تستطيع أن تثأر للأرض . إياك إذن ان تحب ... ولكنْ هل تُوغل والعشق ليس معك ؟ وداعاً . عليّ أن أدفنه . [تهمّ بالانصراف .]

الامام

لا . حرامٌ على جسده وعلى يدك التراب ... الى النار .

الإمام واللفيف يتهيؤن للخروج . زينه تحول دونهم . الى جنبها هادي . صمت . القوال يدخل . يليه الأعمى والكسيح .

القوال يشير الى الاعمى والكسيح

وسّداه التراب ، منذ هنيهة ، ثم غمغما عند لحده : لهجة غريبة .

الإمام يتفرس في الاعمى والكسيح ملتهباً غضباً . زينه وهادي ينفرج عنها الهم .

زينه لنفسها

وي ! أشلاؤه ! أشلاء تختلج ... [تلامس كفيها .]

الفلاح الأول مستريحاً

أصبح ضيفَ الأرض .

فجأة يحدق القوال والفلاحون الى العالية .

هادي لزينه

زينه ! انظري. أصبحوا ينصبون الرءوس ويحدقون الى العلياء.

الكسيح يضحك . الأعمى يبكي . الفيف يجتهـدون في أن يصرفوا أبصارهم عن العالية . الإمام مزعزع .

زينه لهادي

أرأيت ؟ [في بطء] كلُّ شيء ممكن اذا خلَّص القلبَ من خيلائه صِدقُ الشوق .

هادي

يحدقون الى العلياء وقد تركها .

الإمام يخرج مهرولاً .

زينه

مهلاً، هادي! انه لايزال فيها. اليه يحدقون ولن يكفّوا. يا له من نصر ! ما حسبتهم يبلغونه ... نصر عابر ، نعم . هل للبشر أن يُفلحوا في قطع الحبال تشدّ سواعدهم الى ذبذبة الجبن ؟ إرخاء

الجبـــال بُرهةً بعد برهة ذلك كسبٌ عظيم . [مهلة .] هبّ أستاذك ، تَقَب سور المحظور ، الا أن كره البشر للإعجاز لن يُبطىء أن يَلحم الثغرة . أمـا هو فلن يغيب عن البصائر أبدا : [في بطء] البـاقي سرُّ ما ذهب ... أن يترك المرءُ الارض عن رضىً ذلك سبيله الى الدوام : يترك الاشياء كلها ، حتى الحب ، تمجيداً للحب . يُقبل على حسّه يُنزّه مداره فيجتني بمنح غمضت ، أومضتْ ، من كنوز إلهام منيع . يستصغر الحيـــاة فيخاطر باللظى عَزَف على العضل ورنّم في اللحم . يخاطر وهو يخفّ الى حيث الريح عربدت فأضمرت إعصاراً عصفاته قذَفاتِ خناجر . [مهلة .] هذا الذي يحدقون اليه ، يا هادي : نجومٌ دارت على قطب الحق ، كلومٌ حول جيد النور ... يا لشظايا قلبٍ كبّره جبروت الزوال .

اللفيف ينصرفون وهم يردّون أنظارهم بعناء عن العاليـــة . القوال والفلاحون يحدقون اليها بلا توقف . الأعمى والكسيح يتناقشان في صمت . هادي ينظر الى زينه ملياً ثم ينصرف من غير الجهة التي قصد اليها اللفيف ، وعلى وجهه أمارات جسارة خاشعة . زينه تمضي وحدها الى صدر المهاد كأنها في ملاءة نور . موسيقى يغلب عليها الروحاني . ظلّ القيثار يتخطط على المهاد .

القوال

هل خرجنا من أسطورة الزمن ؟

الستار يسقط

شعر مطلق . تغلغل نفساني . نظر فلسفي بلحظ صوفي متجدد . هذه أركان مسرحية « جبهة الغيب » للشاعر الناثر بشر فارس .

أسلوب لمّاح: الكلمات تنعقد في إضافات غير مطروقة ، تحمل تلويحات شراراتها تشق آفاق التأمل . فيصبح التعبير تفكيراً وتصويراً معاً .

تتنـاول « جبهة الغيب » مطالب البشر الكبرى في نواحي الإرادة والشعور والاعتقاد: لماذا ينبغي لشهامة المرء أن تحرر اندفاق الحياة ؛ ما أصول الحب وشرائطه ورهائنه ؛ كيف يعلق الإنسان وقته العابر بدوام الله ؟

من حركات الأشخاص ومحاوراتهم تنبثق عقدة المسرحية . هي الصلة الحارّة الخفيّة القائمة بين الأرض والسماء ، يحسّ بها فيستقصي سرّها من استطاع أن يستخلص من الضعف الغارق في القلق والحسرة قوة تدفعه الى استطلاع ما يرهب منه الإنسان وهو راغب فيه . يستطيع ذلك رجل كيانه كتلة « هموم تحترق » .

لا ندري ما مصير هذه المسرحيـة . هل تغزو المسرح الأوروبي كما غزته أختها الصغرى « مفرق الطريق » ، أو هل تغزو هذه المرة المسرح العربي فتغذي أرجاءه بالقيم الدائمة ؟

على أننا موقنون أن « جبهة الغيب » من الدعائم الكبرى لنهضتنا في ميـدان الفكـ[ـر] المتوغل والشعر المكتوم جنباً الى جنب .



BISHR FARÈS

Démesure

mystère oriental en cinq temps

٣٠٠ ق.ل.